دكتور محمود محمد عمارة
جامعة أم القرى

فقه الدعوة

من قصة موسى عليه السلام



السلام العالمية
للطبع والنشر والتوزيع
٣٢ ش الفلكي ، باب اللوق ت ٣٦٠٧٢٣

دكتور محمود محمد عمارة
جامعة أم القرى
'Imarah, Mahmud Muhammad Muhammad

فقه الدعوة
من قصة موسى عليه السلام

السلام العالمية
للطبع والنشر والتوزيع
٣٢ ش الفلكي . باب اللوق ت . ٣١٠٧٣٠

Mnh

دعـاة يخسرون القضية

عندما تتحول النصيحة فى منطق الداعيـــة الى فضيحة ٠٠ فان ذلك مردود الى واحد من احتمالين :

أما أن الواعظ لم يستكمل عـدته العلمية ليكون داعيـــة ٠٠

أو يكون قد استكملها ٠٠ لـــكن تنقصه الحكمة فى عرض قضاياه ٠٠

وفى كلا الحالين : يسوء الفهم بين الــداعى ٠٠ والمـدعو ٠٠

وبالتالى : يستحيل التفاهم ٠٠

وعلى الساحة الاسلامية اليـوم دعاة لا ينقصهم الاخلاص ٠٠ بيد أنهم فى حاجة الى استكمال العدة ٠ ليخوضوا المعركة بسلاح من المعرفة والحكمة معا ٠٠

ان من أعظم أسباب تأخرنا : العـلم الناقص ٠٠ الذى هو أشد خطرا من الجهل البسيط :

لأن الجـاهل محتمل أن يستجيب على يـد مرشـد

عالم ٠٠ بلا تفلسف ٠ أما صاحب العلم الناقص ٠٠ فهو لا يدرى ٠٠ ولا يقتنع بأنه لا يدرى ٠٠

وكمـا قيـل :

البلاء بمجنون خير من الابتلاء بنصف مجنون :

وإذا احتجنا الى لمعـرفة الكاملة رصيدا يمدنا بالطاقة ٠٠ فنحن أحـوج ـ فى حال العـلم ـ الى الحكمة ٠٠ لتأخذ الحقيقة سبيلها الى القلوب ٠٠

ان عشرة دراهم من الحكمـة ضرورية لـدرهم واحد ٠٠ من المعرفة ! ذلك ٠٠ بأن بعض النـاس مصروف عن الحق جهلا ٠٠ لا عنادا ٠٠ ومن ثم ٠ فالرفق به أولى من قسوة تثير بهـا فى نفسه ردود فعل معاكسة ٠٠ تقف معه ضد موعظتك :

(أ) عـزة نفسه ٠٠

(ب) عصبيته لمذهبه فى الحياة ولو كان فى ذاته خطـأ ٠٠

(جـ) الفه لعادات صارت له طبيعة ثانية ٠٠

ومع احساسه العميق بأنك على الحق فى نصيحتك أياه ٠٠ ومع احساسه أيضا بحاجته الى ما يقول ٠٠

الا أنك بالقسوة نسفت جسور التفاهم ٠٠ وعـاد هو بذنب هو فيـه معذور ٠٠ ولم يشفع لك حينئذ

اخلاصك فى موعظتك ‥ فكنت مـذنبا ‥ غيـر معـذور ! !

وأمـر آخـر :

ان الخاسر الحقيقى هو الدعـوة التى يتقاضانا الوفاء لها نسيان حظـوظ النفس ‥ ليـكون الولاء للدعوة وحدها •

لقـد استطاع القـرآن الكريم فى الماضى أن يقنع المجوس والمشركين • فدخلوا فى دين الله أفواجا •

ويخشى أن يئول أمرنا اليوم الى عجز عن اقنـاع المسلمين بحقائق دينهم !

وفى غمرة الحماس قد ترتكب اثما يحـول بين الناس وبين هداية القرآن •

ان الصحوة الاسلامية اليوم شىء يحس معـه المسلم ببرد السلوى ‥ ومن واقع الحـرص نقولها كلمات نحسبها مجدية ‥ وفى وعينا أن أعداء الاسلام لا يسكتون :

ان تجربتنا معهم تثبت أنه :

كلما هبت الأمة الاسلامية من رقدتهـا فى بعث جديد ‥ كلما كانت لأعـدائها حركة موازية تحـاول

أن تدرا بها خطر البعث الاسلامى الجديد تطويقا ·· أو احباطا ·· أو تشكيكا ·· وحينئذ فالدعاة مطالبون بمزيد من الحذر ·· ان قوة الاندفاع تفقد الداعية الرؤية البصيرة المستأنية ·· وبالتالى ·· لا يقدر على الاقناع ··

وهنا لابد من الحكمة سبيلا الى مكان الاقناع فى قلوب الناس ·

ومن صورة هذه الحكمة ما قاله عبد الحميد الكاتب :

اذا صحب أحدكم رجلا فليختبر خلائقه ·· واذا عرف حسنها وقبيحها أعانه على ما يوافقه من الحسن ·· واحتال بصرفه عما يهواه من القبح بألطف حيلة وأجمل وسيلة :

وقد علمتم أن سائس البهيمة اذا كان عالما بصيرا بسياستها التمس معرفة أخلاقها :

فان كانت جموحا لم يهجها اذا ركبها ·

وان كانت سبوقا اتقاها من قبل يدها ·

وان كانت شرودا توقاها من ناحية رأسها ·

وان كانت حرونا قمع برفق هواها فى طرقها ·

فان استمر عطفها يسيرا فيسلس له قيادها ·

وعلى الساحة الاسلامية اليـوم دعاة لا نشك فى اخلاصهم ٠

بيد أن قصـــور ادراكهم للهـدف ٠٠ وعجزهم عن المعنى فى الطريق المؤدى بهم اليه ٠٠ كل ذلك يجعلهم أكثر الناس حاجة الى وقفه يحاسبون فيها أنفسهم ـ حين لم يحسنوا الوصول بالناس الى ما يريدون ـ ثم يجددون المسير مرة أخرى فى ضوء الحكمة القرآنية ٠٠ والتى نحاول أن نصل الى بعضها فى هذه الصفحات التى نتعرض فيها لقصة موسى عليه السلام ٠٠ من القرآن الكريم ٠

والله تعالى هو المأمول أن يبلغنا ما نصبو اليه ٠ انه نعم المولى ونعم النصير ٠

د٠ محمود محمد عماره

حاجتنا الى الدعــــوة

معنى الدعـــوة :

الدعوة : من الدعــاء الى الشىء · بمعنى الحث على قصده · ومنه قوله تعالى :

(قال رب السجن أحب الى مما يدعوننى اليه)

وقوله عز وجل :

(والله يدعو الى دار السلام)

ومثلها الدعاية · وفى كتـــاب هرقل : أدعــوك بدعاية الاسلام · أى : بدعوته · وهى فى العرف :

حث الناس على الخير والهدى · والأمر بالمعروف · والنهى عن المنـكر · ليفــــوزوا بسعادة العـــاجل والآجـــل) :

المــراد بالدعــوة :

ومن هذا التعريف يتضح المقصود بكلمة الدعــوة عند اطلاقها ·· وهو : الدعوة الى الله · قال صاحب القامــوس :

---

(١) المرحوم الشيخ على محفوظ ·

(الرغبـــة الى الله)

والرغبة الى الله تعالى · أو الدعوة اليه تعنى : الدعوة الى دينه وهو الاسلام :

(ان الدين عند الله الاسلام)

معنى الوعـــظ :

واذا كانت الدعــوة فى جوهرها : اقامة نظـــام الحياة ليتسق مع أصول الاســـلام ·· فان الوعظ هـــو :

استثـــارة المشاعر ·· وترقيقها ·· وحفــزا لهم من مراقدها لتنشط ·· وتنبعث عاملة بهــذا الــدين المدعو اليه ·

انه عملية قلبية عاطفية ·· تقوم بدورها الفعال ·· حتى اذا عرضت حقائق لاسلام على العقل ·· كانت أشواق القلب دافعــا الى قبولها ·· بل والدعـــوة اليهـــا ·

هــل نحن فى حاجة الى الدعوة ؟

وبصورة أوضح :

١ ـ فينا كتاب الله تعالى ··

٢ ـ وسنة نبيه المطهرة ··

٣ - وحوادث التاريخ بين أيدينا ومن خلفنا ..

٤ - وفينا أيضا واعظ الضمير فى كياننا ..

فهل نحن مع هذا فى حاجة الى دعوة ؟ ! ودعاة ؟! يقول أناس لا فائدة ! وربما وصل التشاؤم ببعض الناس حدا أنكروا فيه أن يكون للوعظ قيمة .. لا من حيث توفر العوامل السابقة فقط .. بل لأن طبيعة الانسان لا أمن معها فى العودة الى الطريق المستقيم اذا هى حادث عنه .. يعنى : لا أمل فى الاصلاح .. وقد يأخذ الأمر شكل مؤامرة يراد بها وقف المد الاسلامى الزاحف .. وبث اليأس فى قلوب تندفع على طريق الاصلاح .. راغبة الى ربها بمثل هذا المنطق :

« لا داعى للتهور دفاعا عن الاسلام .. لماذا ؟ لأن للدين ربا يحميه !! » .

أراء المتشائمين .. والمغرضين(١)

رأى البراهمة :

قالوا : لا جدوى من الاصلاح .. ولا علاج الا بواحد من سبيلين :

---

(١) يراجع فى هذا الموضوع كتاب : الدعوة الى الله للمرحوم الشيخ أبو بكر ذكرى .

أما بالزهد ·· فرارا من الحياة ·
وأما بتقديم النفس قربانا للنار · يصير بها الانسان رمادا ·

وفى امكاننا أن نقول ردا عليهم :

ان اللجأ الى أى من وسيلتين أحلاهما مر ··
انما يكون لو لم نجد هناك طريقا آخر للخلاص ··

أما وقد فتح الحق سبحانه وتعالى طريق العودة اليه أمام المسرفين على أنفسهم ·· مهما كانت الذنوب أحجاما وأعدادا ·· فان فرصة الاصلاح اذن متاحة ·· والأمل فى العلاج قوى ··

ونحن فى حاجة الى حداة مخلصين عى طريق العودة ·· يمهدونها تمهيدا أمام السالكين ·· ليستأنفوا السير من جديد على سواء الصرط ·

رأى أبى العلاء :

واذا كان البراهمة منطقيين مع أنفسهم وزمانهم وبيئاتهم ·· فالرجل كأبى العلاء المعرى يرفض النصيحة ويشكك فى جدوى الموعظة الحسنة فى مثل قوله :

وما قبلت نفس من الخير لفظة
وان طال ما فاهت به الخطباء ؟ !

كيف يقول بهذا مع أنه وقف واعظا آمـــرا ناهيا بما روى من شعره الزاهــد فى الدنيـــا ·· والذى يستحث الخطى الى الدار الآخرة ؟

وكيف يحرم على غيره ما أباح لنفسه ؟ !

ثم انه رجــل مسلم ·· وتاريخ الاســـلام حافل بما صنعته الكلمة الطيبة فى عصـــور الظلام وكيف خرج بها الناس من الظلمات الى النور ؟ ! واذا لم يقبل هو من الخير لفظة ·· فقد قبل غيره ·· وأحس فى كيــانه بالتغير الى الأفضل ·· فهو اذن استثناء من القاعدة ·· ويأســه من الحياة لا يصح أن يكون هو القاعدة لحياة حافلة بنماذج تتناول أمور عيشيا عاملة آملة ·· صالحة مصلحة ·

واذا لم تؤثر كلمة الخير اليوم ·· فسوف تؤثر غدا أو بعد غد ··

بل ان حق المسرفين فى الموعظة لا يسقط بالتقادم! · وواجب الدعــاة تخولهم بالموعظة بلا يأس وان طال بهم المدى ··

على أن تعريف الدعوة مأخوذ فيه معنى : الحث ·· والالحــاح ·· والحض ·· باستمرار ·· كما يفهم ذلك من نص التعريف الآنف الذكر ··

وذلك يعنى بالضرورة دوام التذكير ‥ والاصل فى ذلك قوله تعالى ‥

(ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون)

ولمن وصل الله تعالى القول ؟

لهؤلاء المذكورين فى الآية السابقة مباشرة :

(فان لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ٠ ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ان الله لا يهدى القوم الظالمين)(٢) ٠

فاذا لم يستجب القوم للموعظة ‥ فان الأمل فى الهداية باق ‥ ولعلهم يتذكرون ‥ فيؤمنون ٠

ان الحق سبحانه وتعالى فى هـــذه الآية الكريمة يجعل من الاستجابة أمـــرا بعيدا بعـــد ما تبين من الهـــدى :

(فان لم يستجيبوا لـــك)

لكنه مع هـــذا لا يطلب منه صلى الله عليه وسلم أن يعرض عنهم وينقض يـــده من تذكيرهم ‥ انه سبحانه يلفت نظـــره الى علة الاعراض هنا وهو :

---

(١) القصص ٥١ ٠
(٢) القصص ٥٠ ٠

الهوى المتبع .. وتلك صورة من الانحراف تضع صاحبها فى مقدمة الضالين .. وعلى رأس قائمة المنحرفين عن جادة الصواب ..

واذن .. فيمكن للقوم .. اذا رأوا يوما أنوار الحقيقة ـ أن يعدلوا موقفهم ويستديروا ليستقبلوا النور الوافد ..

وتلك نتيجة متوقعة .. لو تخلصوا من تحكم الهوى .. ولهم على نفس الطريق أخوة سبقوهم بالايمان ..

ولا تواجههم الآية بالظلم .. لكنها تقرر حقيقة عامة .. لا تشتبك اشتباكا مباشرا مع القوم : فلعل وعسى أن تتغير القلوب ..

(ان الله لا يهدى القوم الظالمين)

ومعنى ذلك أن الظلم منشأ الضلال .. فاذا تحرر الانسان من ربقته .. تحرر فى نفس الوقت من الضلال .. وأسلم زمامه لهداية السماء ..

ولو تأملنا الآيات الكريمة التالية لوجدناها تعرض نماذج لأناس تلى عليهم الذكر فآمنو بعد ما كفروا .. وانها لتتحدث عن سماحة أنفسهم .. وبشاشة قلوبهم .. ثم عن ما أدخر لهم من الثواب المضاعف..

ممـــا نعتبره تشجيعا للمعاندين ·· لينقلوا خطاهم ـــى نفس الدرب · ليصلوا الى نفس المصير ·· ولن يتم ذلك الا بالدعــوة ·· والدعـــوة المستمرة ·· بلا يأس ولا ضجر ·

وذلك قوله عز وجل :

(الذين اتيناهم الكتــاب من قبله هم به مؤمنون · واذا يتلى عليهم قالوا امنـــا به انه الحق من ربنا انا كنا من قبله مسلمين · أولئـك يؤتون أجـــرهم مرتين بمـــا صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون)(١) ·

شواهد من السنة :

لما أسلم الطفيل بن عمــرو الدوسى ·· أعـــاده الرسول صلى اللــه عليه وسلم الى قومه ليـدعوهم الى الاسلام ·

ولمــا دعاهم الى مثل ما آمن به · وطالت دعوته ·· وكان قبل هــذا مسموع الكلمة فيهم ·· أحس بشىء من الحرج ·· الذى حمله على العودة اليه صلى الله عليه وسلم فقال :

انه قــد غلبنى على « دوس » الزنا ·· فادع اللــه

---

(١) القصص ٥٢ : ٥٤ ·

عليهم فقال عليه الصلاة والسلام : اللهم أهد دوسا ..
ثم قال له :

أرجع الى قومك : فادعهم .. وارفق بهم(١)

ونلاحظ هنا أن اليأس قد استبد بالطفيل فطلب أهلاكهم ولكن الرسول الكريم أمره أن يستمر فى دعوته .. شريطة أن يغير خطته .. بمعنى أن يمارس جولته الجديدة بلا احساس بمركزه وسابق عهده فيهم فان من شأن ذلك أن يفسد خططه .. كلما تذكر كلمته التى لم تغد مسموعة !

وعليه أن يترفق بهم .. فانهم بهذا الرفق وأصلون معه الى حيث أمر الله تعالى وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم ..

ان الموعظة الصادرة من قلبك قد لا تصادف قلبا خاليا لتتمكن منه .. لكن ذلك القلب الجامد قد يحملها الى من هو أدعى منه وأقرب الى التقبل والالتزام ..

(ويبلغ الشاهد منكم الغائب)

وربما بقيت الكلمة الطيبة بذرة فى النفس .. ولا تورق ولا تثمر .. الا أن يتهيأ المناخ .. وتستعد

---

(١) راجع السيرة . لابن كثير .

التربة ·· ويسمح الجو ·· فتنبت من كل زوج بهيج ··

ولن يتم ذلك كله الا بدوام الموعظة ·· ونبذ اليأس ·· الذى هو أساسا غاية الشيطان ·· لتصبح الظروف أنسب لعمله هو ·

وعلى فرض أن الطفيل لم يحقق نجاحا ·· فلا عليه ·· والأمر كما يقول الشاعر :

« ومبلغ نفس عذرها مثل منجح » ··

أى اذا كنت تأخذ سبيلك لتحقيق هدف معين ·· فان وصلت اليه ·· فبها ·· والا فأنت كالذى نجح فى تحقيق مثله تماما ما دمت قد بذلت أقصى جهدك ولم تدخر وسعا ·

وعلى فرط عداوة أبى جهل للرسول صلى الله عليه وسلم ·· وضياع الأمل كلية فى هدايته ·· الا أن ذلك لم يمنع الرسول الكريم من أن يكرر دعوته ·· ودعوته بالكنية - يا أبا الحكم - توددا اليه · وتلطفا به ·

وأكثر من ذلك كله ·· فاننا نطالع قوله صلى الله عليه وسلم :

(كنت بين شر جارين : أبى لهب : وعتبة بن أبى

مغيط · ان كانا ليأتيان بالروث فيطرحانه على بابى)
كما روى صاحب السيرة الحلبية ! ·

لكنه يروى الى جانب ذلك موقفه عليه الصلاة والسلام ·· البالغ بالأمل منتهاه ·· حين قال :

(ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يكثر من مجالسة عتبة بن أبى معيط ليدعوه الى الاسلام) ·

وليس بيننا اليوم من هو أفدح جرما من عتبة ·· ولا من هو شر من أبى جهل وأبى لهب ··

ويحملنا ذلك على الاحتفاظ بقدر من الأمل فى قلوبنا ·· يحملنا على التذكير على رجاء أن تنفع الذكرى ·· ايمانا منا بطبيعة الانسان ·· وتطلعنا الى صحوة أو انتقاضه واحدة من تحت رماد الغفلة يصير بها المعاند خلقا آخر ··

وتاريخ الاسلام شاهد على ذلك ··

يقول المرحوم الشيخ على محفوظ فى كتابه :
هداية المرشدين :

(ان الأمراض والعلل تعرض للاجسام فتذهب بجمالها ·· وكثيرا ما تودى بحياتها · اذا لم تسعف بالعلاج الناجع · قبل استفحالها واستداد خطرها ·
والقلوب كالأجسام :

يعرض لها من العلل والأمراض ما يطفىء نورها ٠ وقد يفقدها حياتهـا ٠ وذلك يوردها مورد الضـلال والغى ٠ وانهماكا فى اللذات والشهوات ٠٠ وعـدم المبالاة بأنواع الفسق والفجور ٠ وسيئات البدع ٠٠ ونبذ الآداب الدينية والأخلاق المحمدية ٠٠ فمن هذه الأفعال تكون أمراض القلوب وعللها قال تعالى :

(بل ان على قلوبهم ما كانوا يكسبون) ٠٠ ركبها كما يركب الصدأ ٠٠ وغلبها ٠

كل ذلك يحملنا على الاعتقاد بأهمية الدعوة وحاجة المجتمع اليهـا ٠٠ لا سيما وطبيعة الانسان معـدة لتقبل دواعى الخير مهما ارتكب من المعاصى ٠٠

انها صالحة للاعتبار دائما ٠٠ ومن واجب الدعاة ألا ييأسوا من ملاحقتهـا بالعلاج كلمـا كان الوقت مناسبا ٠٠ والظروف مواتية ٠٠

والا ٠٠ فان الاستسلام للعلة مجافاة لروح الاسلام الذى يؤكد دائما على قبول التـوبة مهما كان حجم الذنوب ٠٠ ومهما كان عددها أيضا ٠٠

وذلك يعنى بالدرجة الأولى الثقـة بلا حدود فى صحوة الضمير وتقبل العلاج من قبـل عصاة بلغوا فى الانحراف حـد التشبع ٠٠ فلنقل كلمتنا ٠٠ فقد

تصادف نفسـا أرهقتهـا الخطيئة ·· وتبحث عن الخلاص · قال بعض الحكماء ·

(الموعظة موقظة للقلوب من سنة الغفلة · ومنفذة للبصائر من سكرة الحيرة · ومحيية لهـا من موت الجهالة · ومستخرجة لها من ضيق الضلالة) ·

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان معبرا عن وجهة نظر القائلين بالتذكير على أى حال :

(القول الثانى) :
يجب الاحتساب سواء نفع أو لم ينفع · لأن احتسابه قيـام منه بواجب شرعى · فلا يتوقف على انتفـاع الغير به ·

ولأن على المسلم أن يؤدى ما عليـه · وليس عليه أن يقوم الغير بما عليه ·· مثل ترك صاحب المنـكر منـكره · وأجابوا على احتجاج أصحـاب القـول الأول ـ المـانعين للتـذكير اذا لم ينفـع ـ بأن الآية الـكريمة :

(فذكر ان نفعت الذكرى) لا تعلق الوجـوب على حصول الانتفاع للأدلة الآتية :

١ ـ ان المعلق « بان » على الشىء ·· لا يلـزم أن يكون عدما عند عدم ذلك الشىء · يدل على ذلك آيات منها :

(فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة ان خفتم) فان القصر جائز وان لم يوجد الخوف ٠

وقوله تعالى : (فان لم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة) والرهن جائز مع وجود الكاتب ٠

٢ ـ ان ذكر الشرط فى الآية الكريمة « فذكر ان نفعت الذكرى » لفوائد منها :

أنه سبحانه وتعالى ذكر أشرف الحالتين عند التذكير وهى حالة الانتفاع ٠٠٠ كما قال تعالى : (سرابيل تقيكم الحر) وتقدير الآية : وتقيكم البرد ٠٠ وعلى هذا فقوله تعالى :

(فذكر ان نفعت الذكرى) فذكر ان نفعت الذكرى أو لم تنفع ومن الفوائد أيضا :

أن المراد الحث على الانتفاع بالذكرى كما يقول الشخص لغيره اذا بين له الحق :

قد أوضحت لك الأمر ان كنت تعقل ٠ فيكون مراده الحث على القبول) ٠

(١) اصول الدعوة ١٩٠ ٠

وقفـة مع المفكرين الغربيين

ذكر الدكتور المرحوم محمد عبد اللـــه دراز رأى بعض الفلاسفة الغربيين فى مفهوم الأخلاق عندهم ٠٠ وفى امكان تغييرها من حال الى حال ٠٠

١ ـ « شوبنهور » الفيلسوف الألمانى قال :

يولد النـاس أخيارا أو أشرارا كمـا يولد الحمل وديعا ٠٠ والنسر مفترسا ٠٠ وليس لعـلم الأخـلاق الا أن يصف سيرة الناس وعوائدهم ٠٠ كما يصف التاريخ الطبيعى « حيـاة الحيوان » (مبادىء عـلم الأخلاق للمرحوم د/ دراز ص٦ ٠

٢ ـ ٠٠٠٠٠٠٠ الألمانى « كانت » :

ان الذى يشاهـــد موقف الانسان فى ظرف معين ويعرف سوابق تصرفاته فى مثل هـــذا الموقف ٠٠ يستطيع أن يتنبـأ صادقا بما سيفعله فى مثـل هـذا الظـرف المعين ٠٠ كما يتنبأ العالم الفلـكى بكسوف الشمس ٠ وخسوف القمـــر فى ســاعة محــدودة « المرجع السابق » ٠

٣ ـ ٠٠٠٠٠٠٠ سبينوزا الهولندى :

(ان أفعال النـاس كغيرها من ســائر الظواهر الطبيعية تحــدث ٠ ويمكن استنتاجها بالضـــرورة

المنطقية الهندسية كما يستنتج من طبيعـــة المثلث أن زواياه الثـــلاث تساوى زاويتين قائمتين) المرجـع السابق ٠

٤ ـ ٠٠٠٠٠٠٠« ليفى برول ٠٠ الفرنسى » :

« ان ميولنا الحسنة أو القبيحة التى تجىء بهـا الى هـذا العالم عنـــد ولادتنا هى طبيعتنا ٠ فكيف نكون مسئولين عن طبيعة هى ليست من عملنا ٠ أو على الأقـل ليست من عملنا الشعورى الاختيـارى » المرجع السابق ٠

٥ ـ ٠٠٠٠٠٠ هيوم الانجليزى :

(ان شعورنا بالمسئولية ليس الا وهما خداعا) ٠

مناقشة هذا الاتجاه :

حين عزل الغرب الدين عن منصة الحكم ٠٠ ومضى وحده فى التيه ٠٠ ارتكب خطأين :

الأول : تحكيم العقل فيما وراء الطبيعة ٠٠ فتــاة دليلة ٠٠ ومضى بين ركـــام من الظنون شقى بهـــا طــويلا ٠٠

الثانى :الاعتماد على الضمير فى مجال الأخلاق ٠٠ فضلوا وأضلوا ٠٠ لأن الضمير الذى لا يستمد نوره من الوحى السماوى ٠٠ ومن الايمان بالآخرة يتخبط

فى الحكم ·· وتصبح الأخلاق فى تقديره أمرا اعتباريا ·· يتلون حسب الأمزجة ·· والأمكنة ··

هذا الضمير الذى أباح للبرازيل أن تلقى بفائض البن لديها ·· فى البحر ·· وسول لأمريكا أن تلقى بفائض القمح عندها ·· الى نفس المصير !

فى الوقت الذى نتواطأ فيه القوى المعادية لارخاص المواد الخام لدى الشعوب المحتاجة فعلا الى هذا القمح ·· وذلك البن !!

فلا هى بالتى أطعمت الشعوب المتخلفة من جوع ·· وفضلت عليها أسماك البحر ·· ولا هى بالتى أنصفت ثلثى سكان الكرة الأرضية فأعطتهم ثمنا يناسب ما لديهم من أمكانات وخامات انها تسلب ·· ثم ترد الى هذه الشعوب بأغلى الأثمان !

هذا هو الضمير الغربى ·· وتلك هى الأخلاق فى نظره !

والقوم هناك منطقيون مع أنفسهم ··

وهل ينبت الخطى الا وشيجة ··
وتنبت الا فى منابتها النخل ؟ !

والشىء من معدنه لا يستغرب كما يقولون :
ولكن الاسلام شىء غير هذا ··

ولدينا نحن المسلمين ما نرد به هذا التصور ·· وما يترتب عليه من احكام جائره ·· واذا قرر «كانت» امكان التنبؤ بموقف الانسان بناء على مواقف سابقة مشابهة ·· فنحن نتساءل :

هل كان من الممكن ـ بهذا المقياس ـ التنبؤ بموقف عمر رضى الله عنه ·· عندما دخل على أخته ·· ونزع ما فى يدها من آيات قرآنية ·· مست شغاف قلبه فحدث التغير الكبير ؟!

كان المتوقع حينئذ ·· أن يثور ·· وتسيل الدماء هنا وهناك · ولكن شيئا من ذلك لم يكن ·· وأعلن الفاروق اسلامه فى ظروف ما كانت تخطر على بال أحد ·· وقل مثل ذلك فى : عكرمة ·· وخالد بن الوليد ·· وغيرهم من الرعيل الأول ·

واذ يقرر « شوبنهور » أن دور علم الأخلاق لايتعدى وصف واقع الانسان الذى لا يمكن تغييره ·· كما لا يمكن تحويل النسر الى حمل ·· والعكس ·· اذا كان يقرر ذلك ·· فانما يتحدث عن علم الأخلاق فى منطق الغرب ·· ان للنظرية الأخلاقية الاسلامية فاعلية وايجابية ·· تمتلك بهما زمام الانسان لتنقله من محيط الى محيط كما يقولون ··

وهى ضد السلبية الواقفة عند حد التسجيل ووصف

الواقع كما هو الشأن هناك ٠٠ ان الحياة هناك أرقام وأحجام ٠٠ ومقدمات تسلم الى نتـائج ٠٠ هكذا في نظام آلى رتيب ٠٠ بينما الاسلام ـ كما قلنا ـ قـوة فاعلة مؤثرة ٠٠ لا ترضى بالواقع ٠٠ ولا تستسلم له ٠٠ لكنها تروضه على فعل الخير استعلاء به على نوازع الشر العارضة على طبيعته ٠٠

يقول المرحوم الدكتور دراز(١) ٠

(ان القـرآن حين يعرض نظريته عن الحـق وعن الفضيلة ٠٠ لايكتفى دائمـا بأن يذكر بهـا العقل ٠ ويثير أمرها باستمرار أمام التفكير والتأمل ٠٠ وانما يتولى هـو بنفسه التدليل على ما يقـدم ٠٠ ويتولى تسويغه ٠

وفضلا عن ذلك ٠ فان طبيعة استدلالالته ٠والطريقة التى يسوق بهـا الدليل ٠٠ قد اختبرت كلتاهما على وجه يفحم أعظم الفلاسفة دقـة ٠ وأشـد المناطقـة صـرامة ٠ فى الوقت الذى تلبى فيـه أكثـر المطالب واقعية ٠ كما تروق أرقى الأذواق الشعرية وأرقها ٠ وأبسط المدارك وأقلها) ٠

ان العقل يعرف الفضيلة بآثارها فى واقع النفس

---

(١) مقدمة : دستور الأخلاق فى القرآن ٠

وواقع الحياة ·· ومن ورائه الوجدان يحرك الانسان للتنفيذ ·· بل والاقتناع بأهميـــة الفضيلة ·· ولو لم يكن من ورائها نفع مادى ··

فما هو الامر هناك ؟

قلب مغلق على عقيدة دينية متحجرة ·· لا تناقش ·· بل تستسلم لمـــا لا تعـلم ·· ثم ·· فى نفس الوقت عقل مبهور بالعلم الحـديث ·· ولا يعترف بهـــذه العقيدة ·· ولا بالـــدين الا طقوسا ومراسم ·· أى أن الكيـــان الانســـانى مضموم على أشـــد أنواع التناقص ·· ومع هذا يتغنى بالبحث العلمى النزية ؟!

أى معنى للبحث وللنزاهة يبقى مع هذا المتمزق ·· والصراع داخـل الكيان البشرى ؟ بل أية حضـــارة يمكن أن تؤسس على هذه الكيانات الهشة ؟!

وجاءت مقرراتهم فى مجـــال الأخـــلاق على نفس المستوى ·· مادية هابطة تقـول أحيـانا كاشفة عن أساس الأخلاق :

(مثـــلا ·· اذا ضعف هـــذا العصب ·· انتهى بالمريض الى عـــادة الكـــذب · واذا مرض غيره ·· انتهى به الى عادة السرقة !

وهكـذا ·· فتسمى شرورا ورذائل ·· وان هى

الا أسماء سمتها الأوهام · وثبتها طول الزمن · فنزلت منزلة القداسة) ·

بيد أن عمليـة التغيير تحـدث أساسا فى باطن الانسان ·· الذى يغالب فيغلبه ·· ويقاومه فينتصر عليه ·· ليخرج الانسان من التجربة أنصع جوهرا ·· وأخلد أثرا ··

(فأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهـوى فان الجنة هى المأوى)(١) ·

(اذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه يأمره وينهاه)(٢) ·

وتجليه الاحساس بهذا الواعظ الذاتى ·· ليقوى ويصبح قادرا على مباشـرة سلطاته فى التوجيـه والارشاد · ·هو ثمرة مباركة لمنهج القرآن فى تربية النفوس وأخذها بالفضيلة :

ونحن نرى (العنـاية الفائقة التى التزمها هـذا الكتاب ـ القرآن ـ فى غالب الأحيان :

---

(١) المرحوم د/ محمد غلاب ـ كنوز الاسلام ·
(٢) المنازعات ٤٠ ·
(٢) الديلمى · مسند الفردوس · دكـره السيوطى فى الجامع الصغير ١/١٧ ·

حين قرن كل حكم فى الشريعة بما يسوغه ٠ وحين ربط كل تعليم من تعاليمه بالقيمة الاخلاقية التى تعد أساسه :

ومن ذلك : انه عندما يدعونا أن نتقبل من أهلينا كل تسوية للصلح ٠ حتى لو كانت فى غير صالحنا يؤيد دعوته بتلك الحكمة :

(والصلح خير)(٣)

وعندما يأمرنا أن نوفى الكيل ٠ ونزن بالقسطاس المستقيم ٠٠ يعقب على هذا الأمر بقوله :

(ذلك خير)(٤)

ولكى يسوغ قاعدة الحياة ٠ التى تطلب من الرجال أن يغضوا أبصارهم ٠ ويحفظوا ٠ فروجهم ـ نجده يسوق هذا التفسير :

(ذلك أزكى لهم)(٥)

وبعد أن يأمرنا بتبين السبب قبل أن نصدر حكما يقول :

---

(٣) النساء ١٢٨ ٠

(٤) الاسراء ٣٢ ٠

(٥) النور ٣٠ ٠

(أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين)(٦) ٠

وننقل هنا بتصرف وجهة نظر المرحوم الأستاذ أبو بكر ذكرى فى الرد على هذه النظرة المتشائمة المغرضة :

١ ـ الحكم على خلق انسان عادى لا يثبت على حال واحدة :

فبينما نراه على صلاح وتقوى حينا ٠٠ اذا بنا نراه وقد انقلب فجأة الى عكس ما كان عليه ٠

أكان يستطيع أن يغير أخلاقه حسب مشيئنه لو كانت الطباع لا تتغير ؟ حسبما يدعى أولئك الفلاسفة ؟

على أنه من مقررات علم النفس : أن الأخلاق تتغير بتغير العالم ٠

٢ ـ يستمر بعض الناس على خلق زمنا طويلا٠٠ حتى يظن أنه لن يتغير ٠ فاذا به ينقلب الى ضده بسبب عظة سمعها أو حادثة وقعت له ٠٠ واذا جاز لانسان

---

(٦) الحجرات ٦ ٠

« دستور الأخلاق ٥١ » ٠

أن يرتد عن دينه كما تقول أخبار الغرب ٠٠ فان عودة الشرير الى طريق الخير أيسر وأولى ٠

ويحكى أبو العلاء فى ذلك :

أبدى العتاهى(١) نسكا ٠٠
وتاب عن ذكر عتبة
والخوف ألزم سفيا
ن (٢) ٠٠ أن يغرق كتبه

وقد وزع الفيلسوف الروسى « تولستوى » اقطاعياته على الفقراء فما سر هذا التغيير ؟

٣ ـ بالعربية والتهذيب تتحول طباع البهائم بل والسباع من الشره والعصيان الى الاعتدال والطاعة ٠٠ فكيف لا يتغير طبع الانسان أيضا ؟ !

٤ ـ زعم الفلاسفة بأن الطباع لا تتغير انكار لحقيقة تاريخية شرعية وهى ارسال الرسل الذين بعثوا لهداية الناس ٠٠ ثم هى انكار لجهود المصلحين عبر القرون ٠

---

(١) هو « أبو المعتاهية » الشاعر المعروف اشتهر بحب جارية له تسمى « عتبة » ثم تاب ٠

(٢) هو سفيان بن عينية من علماء القرن الثانى الهجرى ٠ غسل جميع كتبه بالماء خشية أن يكون فيه ما يؤخذ عليه ٠٠ ورعا منه ٠

واذا كان هناك اليوم باحثون منصفون ·· يلتقون مع وجهة النظر الاسلامية القاضية بامكان الاصلاح وضرورته أيضا ··

فقد بقيت للماكرين رغبـــة ملحة فى وقف المـــد الاســـلامى الزاحف ·· عن طريق هـــذه الظنون المستترة وراء ما يسمى بالبحث العلمى ··

ثم بمثل هذه التساؤلات التى يطرحونها فى طريق البعث الاسلامى الجديد ·· كقولهم :

لا أمل فى الاصلاح ·· فأرضوا بالأمر الواقع ·· أو : ان الاصلاح ممكن ·· ولكن لا تراعوا ·· فللدين رب يحميه !

وانها لمحـــاولات مكرورة يبتغى بها كسر حـــدة الحماس المشتعل فى صدور ترى فى الاسلام أملهـــا وملاذها ·· فلو تحقق أملهم ·· ورضينا بالواقع ·· ولو قعـــدنا مع الكسالى ·· تاركين حمـــاية الدين لرب الدين ··

- أى اذا أهملنا الحقـــل الاسلامى بلا حراســـة ولا ديدبان يقظ - تولى أعـــداؤنا حراسته !! وكنـــا كما يقول الشاعر ··

ومن رعى غنمـــا فى أرض مسبعة
ونام عنهـــا تولى رعيهـــا الأسد !

ونحن - باسم الاسلام - مطالبون باليقظة ..
والدقة فى تناول معارف القوم هناك ..

واذا كانت الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها التقطها .. فان عين الحكمة أن تأخذ ما تأخذ ..
وتدع ما تدع بمقياس الاسلام العادل ..

وقد تكلفنا المعركة جهدا .. ومالا .. ولا بأس اذا بقيت لنا شخصيتنا الوفية لدينها ..

تهون علينا أن تصاب جسومنا
وتسلم أعراض لنا وجسوم

دعوة موسى عليه السلام :

تشعبت جوانب دعوة موسى عليه السلام .. وتعددت مناحيها .. تعددا سلكه عليه السلام ضمن أولى العزم من رسل .. على قدر مهمته الخطيرة التى تركزت فى مهام أربع :

المهمة الاولى :

مقاومة طغيان مدعى الربوبية : فرعون ..

« ان فرعون علا فى الأرض وجعل أهلها شيعا يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم انه كان من المفسدين »(١) .

---

(١) القصص ٤ .

المهمة الثانية :

تحرير الشعب الاسرائيلى من عبودية فرعون :

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ونجعلهم الوارثين · ونمكن لهم فى الأرض ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون »(٢) ·

المهمة الثالثة :

مقاومة كفران بنى اسرائيل ·

« واذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم اذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين »(٣) ·

المهمة الرابعة :

بيان الشريعة وتأسيس الحكومة :

« قال ياموسى انى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى فخذ ما آتيتك وكن من الشاكرين · وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ··· »(٤) ·

---

(٢) القصص ٥ : ٦ ·
(٣) المائدة ٢٠ ·
(٤) الأعراف ١٤٤ : ١٤٥ ·

وسوف تكون لنا بمشيئة اللـــه وقفات أمام المهمة الأولى ·· فى محاولة نستخرج بها بعض الدروس ·· نقدمها بين أيدى الدعاة اليــوم ·· لمن شاء أن يتخذ الى قلوب الناس سبيلا ·

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب »

« بعض الدروس المستفادة من قصة موسى وفرعـون »

يقول الحق سبحانه :

(اذهب الى فرعـون انه طغى ـ قال رب اشـرح لى صدرى ـ ويسر لى أمـرى ـ واحلل عقـدة من لسانى ـ يفقهوا قولى ـ واجعل لى وزيرا من أهلى ـ هارون أخى ـ اشدد به أزرى ـ وأشركه فى أمرى ـ كـى نسبحك كثيرا ـ ونذكرك كثيرا ـ انك كنت بنـا بصيرا ـ قال قد أوتيت سؤلك ياموسى ـ ولقـد مننا عليك مرة أخـرى ـ اذ أوحينـا الى أمك ما يوحى ـ أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليـم فليلقه اليـم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبـة منى ولتصنع على عينى ـ اذ تمشى أختك فتقول هـل أدلكم على من يكفله فرجعناك الى أمك كى تقـر عينها ولا تحزن وقتلت نفسا فنجيناك من الغم وفتناك فتونا فلبثت سنين فى أهل مدين ثم جئت على قدر ياموسى ـ واصطنعتك لنفسى ـ اذهب أنت وأخـوتك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ـ اذهبا الى فرعون انه طغى ـ فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى ـ قالا ربنـا اننا

نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى ـ قال لا تخافا اننى معـكما أسمع وأرى ـ فأتياه فقولا انا رسـولا ربك فأرسل معنا بنى اسرائيل ولا تعـذبهم قد جئناك بآية من ربك والسلام على من اتبع الهدى ـ انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتولى ـ قال فمن ربكما يا موسى ـ قال ربنـا الذى أعطى كل شىء خلقـه ثم هدى ـ قال فما بال القرون الأولى ـ قال علمها عنـد ربى فى كتـاب لا يضل ربى ولا ينسى ـ الذى جعـل لـكم الأرض مهدا وسلك لـكم فيها سبلا وأنزل من السماء مـاء فأخرجنا به أزواجنا من نبـات شتى ـ كلوا وارعوا أنعامكم ان فى ذلك لآيات لأولى النهى ـ منها خلقناكم وفيهـا نعيدكم ومنها نخرجـكم تارة أخرى ـ ولقـد أريناه آياتنا كلها فكـذب وأبى ـ قال أجئتنـا لتخرجنـا من أرضـنا بسحرك يا موسى ـ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعدا لانخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ـ قال موعـدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ـ فتولى فرعون فجمع كيده ثم أتى ـ قال لهم موسى ويلـكم لاتفتروا على اللـه كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ـ فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجـوى ـ قالوا ان هـذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطريقتكم المثلى ـ فاجمعوا كيـدكم ثم ائتوا صفا وقد أفلح اليـوم من استعلى ـ قالوا يا موسى

اما أن تلقي واما أن نكون أول من ألقى - قال بل القوا فاذا حبالهم وعصيهم يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى - فأوجس فى نفسه خيفة موسى - قلنا لا تخف انك أنت الأعلى - وألق ما فى يمينك تلقف ما صنعوا انما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى - فألقى السحرة سجدا قالوا آمنا برب هارون وموسى - قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى - قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا - انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى - انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى - ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلا - جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى - ولقد أوحينا الى موسى أن أسر بعبادى فاضرب لهم طريقا فى البحر يبسا لا تخاف دركا ولا تخشى - فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم - وأضل فرعون قومه وما هدى - يا بنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم جانب الطورا لأيمن ونزلنا عليكم المن والسلوى - كلوا من طيبات

ما رزقناكم ولا تطغوا فيــــه فيحل عليكم غضبى ومن يحلل عليه غضبى فقــــد هوى - وانى لغفار لمن تآب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى) •

مدخـــــل

فى مستهل سورة طه يخاطب الحق سبحانه وتعالى نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم مبينا له :

أنه تعالى لم ينزل عليه القرآن ليشقى به فى دنياه •• لكنه أنزله سبحانه ليكون هــدى ونورا يوقظ الفطرة الانسانية لتتذكر عناصر الخير فيها •• وأن لها دورا يفرض عليهــا أن تحققه فى ضــوء هـــذا القــرآن العظيم ••

ولأن هذا القرآن من عند خالق القوى والقــــدر (ممن خلق الأرض والسموات العلى • الرحمن على العرش استوى) لأنه كذلك •• فان الذى يتخذ هــذا التنزيل مرشدا وهاديا سوف يصل باذن اللــــه الى سعادة الــــدارين •• حين يســلم زمامه الى تشريع كامل خـــالد قد استكمل كل عناصر الفــلاح •• لأن منزلة سبحانه له كل صفات الجلال والجمال :

(له ما فى السموات والأرض وما بينهما وما تحت الثــرى • وان تجهر بالقــول فانه يعلم السر واخفى الله لا اله الا هو له الأسماء الحسنى) •

وأين من هـذا التنزيل مذاهب أرضية قاصرة ٠٠ تحمـل فى طياتها جهل واضعيها ٠٠ وقصـورهم ٠٠ وأهواءهم ٠ ٠التى تضطرب بهـا أحـوال البشر فلا تستقر على حال من القلق ٠

و يأتى بعد ذلك الحديث عن قصـة موسى عليـه السلام حين تلقى بشائر الوحى لأول مرة ٠ ووقف بين يدى ربه سبحانه وتعـالى ليتحمل مسئولية البـلاغ المبين ٠ لرسالة كريمة كانت طوق النجاة لأمة تتطلع الى هذه النجاة ٠٠

وذلك قوله تعالى :

(وهل أتاك حديث موسى اذ رأى نارا فقـال لأهله امكثوا انى آنست نارا لعلى آتيكم منها بقبس أو أجـد على النـار هـدى ٠ فلما أتاها نودى ياموسى انى أنا ربك فاخلع نعليك انك بالواد المقدس طوى ٠

وأنا اخترتك فاستمع لمـا يوحى ٠

اننى أنا الله لا اله الا أنا فاعبدنى وأقم الصـلاة لذكرى ٠ ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزى كل نفس بما تسعى ٠

فلا يصدنك عنهـا من لا يؤمن بها واتبع هـواه فتـردى ٠

وما تلك بيمينك يا موسى قال هى عصـــاى أتوكأ عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى ٠

قال القها ياموسى فألقاها فاذا هى حية تسعى ٠

قال خذها ولاتخف سنعيدها سيرتها الأولى واضمم يدك الى جناحك تخرج بيضاء من غير سوء آية أخرى لنريك من آياتنا الكبرى) ٠

وفى هــذا الموقف المشمول بعناية الله تعالى ٠٠ وحين تثق النفس بخالقها ثقــة مطلقـــــة ٠٠ يتأهب موسى عليه السلام ليدعو الى الله تعالى على هــدى وبصيرة ٠٠ فى رحلة كفــــاح حافلة بأشق ما واجه المرسلون من صعاب ٠

التزود لرحلة الكفاح :

يقول الحق سبحانه :

(اذهب الى فرعون انه طغى ٠

قال : رب اشرح لى صدرى ٠ ويسر لى أمرى ٠ واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ٠ واجعل لى وزيرا من أهلى هارون أخى أشــدد به أزرى وأشركه فى أمــــرى ٠ كى نسبحك كثيـــرا ونذكرك انك كنت بنا بصيرا ٠

قال قد أوتيت سؤلك ياموسى) ٠

معنى الآيات :

يأمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يذهب الى فرعون بسبب عدوانه الذى بلغ حد الطغيان ·· وهو الأمر الذى يجعل من هذا الذهاب ضرورة ·· تكسر من تجبر فرعون الذى ظن أنه الوحيد على الساحة ·· ثم هو يواجه اليوم بالحق على لسان موسى عليه السلام ·

ولا تتحدث الآيات الكريمة عن استجابة الرسول بقوله :

سمعا وطاعة ·· مثلا ·· فذلك أمر مفروغ منه ·· ولا يحتاج الى تنصيص ··· لكنها تذكر رجاء موسى عليه السلام أن يعده الحق تعالى لهذه المهمة الصعبة بما يناسبها من اعداد نفسى ومادى ·· ويتلخص هذا الرجاء فى أمور أربعة :

١ ـ شرح الصدر ·

٢ ـ تيسير الأمر ·

٣ ـ أن يحلل الله سبحانه عقدة لسانه ·

٤ ـ أن يشد أزره بأخيه هارون ·

وانه ليستهدف بهذا الزاد الوصول الى الارتباط الوثيق بالخالق جلا وعلا ذكرا وتسبيحا ·· هما فى

نفس الوقت الوقود المحرك . والطاقة الدافعة .. وقاعدة الانطلاق الى البلاغ . ولأن الله تعالى هو المكلف .. وهو البصير بكل ما يحدث .. وبما سوف يسفر عنه ذلك اللقاء الخطير بين الحق الأعزل والباطل المسلح ..

ولأنه مع ذلك يريد أن يحق الحق ويبطل الباطل .. فانه يتلطف سبحانه ويحقق رجاء موسى عليه السلام .. لتبدأ الخطوة التالية :

(قال : قد أوتيت سؤلك ياموسى)

ثم يمده تعالى بمزيد من صور العون الالهى فى طفولته وصباه .. ليمضى على ضوء الذكرى أشد عزما . وأقوى رجاء .

اذهب الى فرعون :

ان موسى عليه السلام مأمور أن يذهب الى فرعون .. ولا ينتظر حتى يأتيه .. بل يمسك هو بزمام المبادرة مع وجود اعتبارات فى جانب الحق ربما ظن بعض الناس أنها مما يمسك بموسى عليه السلام فلا يذهب اليه .. فمن شاء فليؤمن . ومن شاء فليكفر ! ولكن الذى حدث أن المبادرة كانت بيد الحق .. رغم توفر ما يأتى :

- ان فرعون طغى ٠

- بل وصل به الطغيان الى ادعاء الألوهية ٠

- ومع أن موسى فى قمة الكمال البشرى (واصطنعتك لنفسى) ٠

- وفرعون فى قمة البغى ٠٠ فان ذلك لا يغير الموقف :

- أى أن طغيان فرعون ليس مانعا من الذهاب اليه ٠ بل هو يقتضى ذلك ويؤكده ٠ قال أبو السعود فى تفسيره :

(« انه طغى » ٠ تعليل للأمر) بالذهاب ٠

- ان فرعون فى قمة المرض النفسى والعقلى ٠٠ وموسى عليه السلام طبيب هذه العلة ٠٠ والطبيب للمرضى ٠٠ لا للأصحاء !

- بل وصل الأمر بموسى وأخيه هارون أن (مكثا على بابه حينا لايؤذن لهما ٠ ثم اذن لهما بعد حجاب شديد)(١) ٠

ان الأمر بالدرجة الأولى أمر دعوة يراد لها أن تخترق هذا الحاجز المنيع - فرعون - لتصل الى

---

(١) ابن كثير رواية عن ابن عباس ٠

قلوب مستعدة للتقبـل والاذعان ·· بغض النظر عن شخصية الداعى ومركزه ·· لان وجود الداعية نفسه مرصود لخـــدمة الدعـــوة والتمكين لها فى قلوب الناس ·· ولن ينال شرف الانتساب اليهـــا الا من وطن نفســه على ركوب الصعب لانقاذ أمة فى قبضة فرعون ··

ولو دعا الدعاة وهم على ثقة من الأمن والراحة ـ كما قيل ـ لما قام فى الأرض مصلحون ·

انه طغى :

هذا تعليل للأمر بالذهاب ·· أى أن الأمر لاينصب حاسما جازما لينفذ بلا أسباب ولا مناقشة ·· وانمــا هو المنهج القرآنى الذى يحتـــرم العقل الانسانى · ويقدره قدره ··

وآية هذا الاحترام أن يعرض عليه القضية مشفوعة بدليلها ·· لتنشط أجهزة الانسان كلها عاملة داعية اليها ·· وليكون لنا درس يفيدنا فى عرض قضايانا على الآخرين عرضا يدخـل فى حسابنا أن للآخـرين عقولا ·· وقلوبا لهـا ذاتيتها · ولهـــا اعتزازها بآرائها ·· ولها أيضا طبعها الذى ينفر من كل عرض تشم منه رائحة الضغط أو الاكراه ·· وانمـــا هـو تجلية الحـق ·· وتوضيح الدليل ·· وبعـد ذلك : لا اكراه فى الدين ·

معنى دعـــاء موسى

دعا موسى ربه أن يحصنه بعدة الهجوم فى معركة تبدو غير متكافئـة .. وتلخص الرجاء كما قلنـا فى أمور أربعة :

١ ـ (قال رب اشرح لى صدرى) :

أى نوره لى ووسعه ليحدث التجاوب مع الدعوة أنسا بها .. وتفاعلا معها .. وانشراح الصدر .. ينسجم به الانسان مع وظيفته فاذا هى أمـــر محبب اليه . أثير لديه ..

فاذا ما زاول هــذه الوظيفة لم يبال بما يواجه من صعاب .. وما يتحمل من أثقـــال .. لأنه لا ينهض بهذه الأحمال بساعده وطاقته المادية .. ولـكن بهذا المدد الوارد اليه من الحق سبحانه وتعالى ..

واذا استمد القلب روحه من اللـــه سبحانه حــرك الجسم الى ما يريد .. واذا انقطع المدد سخره الجسم لمـا يريد .. وجعله عبــدا لشهواته . وصار القلب كالرئيس الضعيف .

له صورة الرئيس . لكنــــه فى الحقيقة مرءوس للجســد المتحــكم فى غيبة المــدد الالهى . ان ضيق القلب المحروم من نور اللـــه يشوش على الخواطر . ولا يمكن صاحبه من اصابة الهدف ..

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :

(لاينقضى القاضى وهو غضبان) (فكيف بالنبوة ـ ومسئوليتها فى القمـــة ـ التى لابد لها من عون من الله يكافىء عظم هـذه المسئولية · لاسيما وموسى عليه السلام يستعد لمواجهة طاغية رأى بعينه ـ حين نشأ فى قصره ـ من صـــور التعذيب ما يحتاج الى زاد من الصبر والتثبت عميق ·

٢ ـ (ويسر لى أمر) :

قد يحب الانسان عمله ·· لـكن الممارسة العملية قد تسفر عن عوائق أكبر من حيلة الانسان ··

ومن ثم فالحــــاجة الى الحق تعـالى متجددة ·· ولذلك يطلب موسى عليه السلام ألا يكله اللـــه الى الى قدراته البشرية ·· وأن يمنحه التأييد والتيسير :

(أ) ذكاء عقليـا يعرف به الحق ·· وأحــــوال الخلق ·

(ب) تذليل الصعاب من الطريق ساعة التطبيق ·

اذا لم يكن عون من الله للفتى ·
فأول ما يجنى عليـه اجتهاده

٣ ـ (واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى) :

والأصل أن موسى عليـــه السلام مبلغ عن اللـــه تعالى ·· فلابد له من البيان سبيلا الى فهم ما يقول ··

فطلب عليـــه السلام حل عقدة لسانه ليصفو له القول ·· صفاء تصل به الكلمة الى قلب فرعون ·· موزونة ·· خالية مما يثير سخريته ·· فى نبرة تحمل على التأثير ·· وكان له عليـــه السلام اهتمام آخر بهذا الرجاء تمثل فى قوله :

(وأخى هارون هو أفصح منى لسانا)

أهمية البيان :

ان الأمة تسير الى الحق عبر طريقين :

التشريع ·· والبيان ··

ان صناعة البيان أشــرف صناعة تحلى بها جيـد النوع الانسانى · لاستمدادها من العقــــل وحركات النفوس · ودلائل الوجود ·

فالعقل الذى امتاز به الانسان وان كان له دخــل فى كل شىء ·· لكن صلته بالبيان أقوى : فقد تحيــا الصناعة البارعة فى متوسط العقول ·

أما البيان الجيد فلا يحيا الا فى الأمم الراقية ·· انه يستمد من الغيب أكثر مما يستمد من الشهادة ·

وان كان بعض كبار الدعـوة يستنكرون البيان • ويعـدونه سفسطـه • ويرمون صـاحبه بالجهـل • ولا يستحون اذا نطقوا بهذا الخزى ورموا لغة نبيهم بذلك •• وفيها سر كتابهم • وفخار أئمتهم • وعليها وحدها حياة دينهم •

تستدل به العقول على الله • وترفع به الحجب عن الحـق • ويكشف عن وجه الصـواب اذا أحاط به الباطـل •

وتنشر الحكمة •ويقام العدل •

ولكن •• من جهل شيئًا عاداه • ونعوذ بالله أن نكون من الجاهلين(١) •

ان البيان لازمة من لوازم الانسان على ما يقـول سبحانه :

(خلق الانسان علمه البيان)(٢)

فلم يعطف البيان على الانسان لأن العطف يقتضى التغاير •• والحال أن البيان والانسان وجهان لعملة واحدة •• وكأنما خلق الله تعالى الانسان يوم خلق

---

(١) راجع فى هذا الموضوع : الدعوة والدعاة للمرحوم الشيخ على الزنكلونى •

(٢) الرحمن •

البيـان ·· أو خلق البيـان فى شخص الانسـان ·· فلا يفترقان ·

(وعن أثـر الكلمـة ودورها فى تحريك الارادة لتعمـل ·

يقول ابن الأثير : « ألا ترى أن حقيقة قولنا : « زيد أسد » هو قولنـا : « زيد شجاع » لـكن الفرق بين القولين فى التصوير والتخييل ، واثبات الغرض أنه رجل جرئ مقدام ، فاذا قلنا : « زيد أسد » يخيل عند ذلك صوة الأسد وهيئته ، وما عنده من البطش والقوة ودق الفرائس ، وهذا لا نزاع فيه ·· وأعجب ما فى العبارة المجازية ، أنها تنقل السامع عن خلقه الطبيعى فى بعض الأحوال حتى أنها ليسمح بهـا البخيل ، ويشجع بها الجبان ، ويحلم بها الطائش المتسرع ، ويجد المخاطب بها عند سماعها نشوة كنشوة الخمر ، حتى اذا قطع عنه ذلك الكلام أفاق وندم على ما كان منه من بذل مـال ، أو ترك عقوبة ،أو أقـدام علـى أمر مهول ، وهذا هو فحوى السحر الحلال ، المستغنى عن القاء العصا والحبال)(١) ·

(وما المجازات والاستعارات والكنايات ، ونحوها من أساليب البلاغة ، الا أسلوب طبيعى لا مذهب عنه

---

(١) المثل السائر لابن الاثير جـ١ ص١١١ تحقيق الحوفى وآخر ·

للنفس الفنيــة ، اذ هى بطبيعتها تريد دائما ما هــو أعظم ، وما هو أجمل ، وما هو ادق . وربما ظهر ذلك لغير هذه النفس تكلفا وتعسفا ووضعا للأشياء فى غير مواضعها ، ويخــرج من هــذا أنه عمل فارغ ، واساءة فى التأدية ، وتحمل لا عبرة به ، ولكن فنيــة النفس الشاعرة تأبى الا زيادة معانيهـــا ، فتصنع ألفاظها صناعة توليها من القــوة ماينفذ الى النفس ويضـــاعف احساسها ، فمن ثم لاتكون الزيادة فى صور الــكلام وتقليب ألفاظه وترداد معانيه الا تهيئة لهذه الزيادة فى شعور النفس)(١) .

فمن النـــاس (من يعجبه حسن اللفظ ، ومنهم من يعجبه الاشارة ، ومنهم من ينقـــاد ببيت من الشعر . واحوج الناس الى البلاغة :

الواعظ ، ليجمع مطالبهم ، لكنــه ينبغى أن ينظر فى اللازم الواجب ، وأن يعطيهم من المبــاح فى اللفظ قــدر الملح فى الطعام ، ثم يجتذبهم الى العـــزائم ، ويعرفهم طريق الحق)(٢) .

ثم انى وجــدت بعض الكتب الاسلاميــة الحركية التربوية قد فصلت بلا مبـــرر بين النثر والشعر . وحرمت المربين من استعمال مئـــات الأبيات والقطع

---

(١) وحى القـلم ٣/٢١٣ .
(٢) صيد الخاطر لابن الجوزى/١٠٠ طبعة محمد الغزالى .

من شعر الرقائق ، أو شعر الحماسة ، أو شعر العقيده والفكرة ، مما قاله ثقات الشعراء ، القدامى والمحدثين ، وشعراء هذه الدعوة المباركة ، والمرء ربما (يسمع المعنى نثرا ، فلا يهز له عطفا ، ولا يهيج له طربا ، فاذا حول نظما : فرح الحزين ، وحرك الرزين .. وقرب من الأمل البعيد)(١) .

و (أن من الشعر لحكمة) كما يقول النبى صلى الله عليه وسلم) .

(وانما الوزن من الكلام كزيادة اللحن على الصوت: يراد منه اضافة صناعة من طرب النفس الى صناعة من طرب الفكر)(٢) .

لهذا ملنا الى ايراد الأشعار ، والاستعانة بها فى هذه المواعظ ، قاصدين أن نضيف الى المعانى التى يستحسنها فكر الداعية نوعا من استحسان نفسه لها ، ليرسخ المعنى ، ويطول تأمله وتذكره .

وليس أدل على أهمية الشعر فى نصر العقائد وترويجها ما كان له من دور فى اسعاف أهل البدع وترويجها لدى العوام ، مضادة لمساعى ابن تيمية

---

(١) جريدة القصر/القسم العراقى ١/٢٠٢ .
(٢) وحى القلم للرافعى ٣/٢٨٥ .

وتلامذته عندما انبروا لتفنيدها ودمغها بحجج السنة الغـراء ٠

(ولا ريب أن منطق ابن تيمية القـــوى أثر أثره ، ولكن جفاف المنطق لا يقوى على مقاومة نضرة الشعر وفتنته) ٠ كما يقول شاعر الاسلام محمد اقبال(٣) ٠

وهـــو كما قال ، فان الذى قلل من سريان كـلام ابن تيمية فى أوساط العامة هـــو ما كان عليه أئمة الضلالة الداعين الى البـدع من روعة البيان ، ورقة الشعر ٠ وتمكنهم فيه ، حتى سحروا قلوب النـــاس بشعرهم من حيث لا يشعرون ، ولم يتهيـأ لابن تيمية شاعر مبدع يسانده ٠

ان للشعر هـذه القابلية فى اسعاف من يستعمله وتزيين الخطأ أو الصواب ، ونصرة الحق أو الباطل٠ على حد سواء ، فى كل شئون الفكر وحقائق الحيـاة اذ النفس الانسانية تحب الجمـال ٠ والشعر جمـال كله ٠٠٠ وبامكانه أن يزيد الحق والصواب نضـرة وزهاء ورونقا ووضوحا ،أ وأن يخفى ما يشين صفحة الباطل والخطأ والوهم من خروق ونتوء واعوجاج ، فينطلى عيبه بالتزويق ٠ ولا يتخلص من أسر الشعر وتأثيره الا قلب عامر بالايمان عمرانا كافيا ٠

---

(٣) كتاب محمد اقبال لعبد الوهاب عزام/٥٢ ٠

ان هـذه الظـاهرة الشعرية هى التى دفعتنى الى الاستعانة بالشعر فى هـذه المواعظ . ولئن كان يقلل من تذوق بعض الدعاة لهـذا الشعر العربى الرصين الواضح الذى اخترته ، ما أصابهم من هـذا الذى أصاب عموم الجيل العـربى الجـديد من ضعف الحماسة الأدبية ، فانى أرجـو أن يكون عملى هـذا محاولة للارتفاع بهذا الذوق لدى الدعاة .ولئن كان باعى فى الشعر قصيرا ، فان فى انتاج الثقـات غنى وبركة . ولئن كان أكثـره منشورا من قبل . فان فى هـذا الانتقاء تقوية وحفظا وترويجا وبعثـا جديدا لـه)(١) .

٤ ـ واجعل لي وزيرا من أهلى . هارون أخى .
أشدد به أزرى .
وأشركه فى أمرى .
كى نسبحك كثيرا .
ونذكرك كثيرا .
انك كنت بنا بصيرا .

---

(١) محمد الراشد . المنطلق من ص٢٧ ومابعدها .

رفقـــة الخيــر :

لابد على طريق الدعوة من رفقة الخير ·· يعينون على أمر الله تعالى ·· ولا يستغنى أجود السيوف عن الصقل كما يقولون ··

وقد طلب موسى عليه السلام أن يكون أخاه هارون وزيرا معه لأنه :

(أ) كان أوسع صدرا ·
(ب) أكبـــر سنا ·
(جـ) أفصح لســنا ·
(د) ثم هو أخوه الذى يتوفر به الاخلاص والود ·

ويتحقق به التعـاون على البر والتقوى على ما يقول سبحانه :

(يا أيهـا النبى حسبك اللـــه ومن اتبعك من المؤمنين)(٢) ·

(يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله)(٢) ·

والصحبة المباركة سند يتخطى به الأنبياء وورثتهم من العلماء حواجز الخـوف والقلق فى عراكهم مـع أعدائهم ·

---

(١) الانفــال ٦٤ ·
(٢) الصـف ١٤ ·

وحين يطلب موسى عليه السلام أخاه ليذكرا الله تعـالى ويسبحاه ·· لا يريد التسبيح فى الخلوة - على ما يقـول المفسرون - وانمـا يريد - ما يكون فى تضاعيف الرسالة ·· فكل منهما يصدر عند ما يؤيد صاحبه ·· ونسبة التأثير لا ريب أكبر مما لو انفرد بالبلاغ ··فربما خنق الطغيان صوته فضاع فى دوامة الشغب ·

وحين ·· تعتقد أن أمرا من الأمور حق ·· تشعر بالراحـة ·· وترتاح أكثر اذا ما وجـدت انسانا يشاركك هذا الشعور بالحق ·· فاذا ما رأيته يطيق هـذا الحق فى ذات نفسه ·· بلغ شعورك بالراحة مـداه ·

فاذا رأيت من يعمل ضد هذا الحق ثارت نفسك ولم تكن بحاجة الى من يقنعك بالدفاع أو الهجوم ··

هذا اذا كان الموضوع مجرد أمر بسيط عادى ·

أما اذا كان الموضوع من الخطـورة بمـكان ·· فان نسبة الراحـة فى حال الموافقة تكون على قـدر أهميته ·· ونسبة الهجوم أو الدفاع أيضا ·

فان الحقـائق تتفاوت بحسب ما يترتب عليها من نتائج ·· وأمـور العقيدة والرسالة بطبيعة الحال تبلغ الذروة ··

وعلى هـذا الأساس طلب موسى عليه السلام أن يشد الله تعالى أزره بأخيه هارون ‥ ليزداد قدرة على تحمل تبعات الدعـوة ‥ ومواجهـة للطاغية المستبد ‥

وأمـــر آخـــر :

كان موسى عليه السلام حاد الطبع ... سـريع التأثر ‥ ولو أنه انفرد بالرسالة لبقى فى حاجة الى الصدر الواسع يتحمل معه الصدمة ‥ ويدور بالحكمة حول الشدائد لاحتوائها ‥ وذلك هو الدور البـارز لهارون عليه السـلام ‥ ومن أجله دعـا أن يكون وزيرا له ‥

ان المزاج الحاد يحقق نجاحا ولا شك ‥ وهو أمر مطلوب فى زمان تضغط فيه الرذائل بثقلها البغيض ولا يفل حديدها الا دفاع قوى ‥ بيـد أن مصلحـة الدعوة تفرض ألا ينفرد هذا المزاج بتصريف الأمور ـ التى لا غنى لها عنه ـ بل لابد مع ذلك من وجهة النظر الهادئة المعتدلة تستثمره لصالح الدعوة . وتوجيهه الى حيث يفيد . وبذلك يتكامل الدعاة على الطريق ‥ بلا نزاع أو تصادم ‥ وما أحوجنا الى أن نعى هذا الدرس جيدا .

لقد أجاب الله تعالى سؤال موسى عليه السلام :

(قـد أوتيت سؤلك يا موسى)

وكان من الممكن أن يستقل موسى بالنبـــوة ٠٠ ولكن للــه تعالى حــكمة هو بالغها قضت بأن يسيرا معا على طريق الدعوة ٠٠ لتصل الى ما قـــدر لها من كمال ٠

التناصر من أجل الدعوة :

وسؤال موسى عليه السلام ربه أن يجعل له من أهله وزيرا ٠٠ يتيح لنــا فرصة الحــــديث عن موضوع الاستعانة بالغير على طريق الدعوة ٠٠ ومدى مايحقق من نجاح ٠٠ وقد تساءل العلماء : هل يكفى الواحـد لينهض بعبء الدعوة منفردا ٠٠ على ما تثيره الوحدة من وحشة ؟

قال جماعة : نعم ٠٠ يجوز للواحد أن يدعو ٠٠

واستشهدوا بقوله تعالى : (فلولا نفر من كل فــرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ٠٠٠) ٠٠

قـــالوا :

الطائفة فى لسان العرب : الواحد فما فوقه ٠٠

لكن ذلك يفيد فى حاله ما اذا كان الأمــــر متعلقا بجماعة من الغافلين يراد وضع الحق بين أيديهم ٠٠ وابلاغهم بالأوامر والنواهى ٠٠

أما من حيث أثر الدعوة فى النفوس ·· فللدعوة الصادرة عن الجمع آثارها البارزة ·

وهنـــا لابد من تدبر الظـروف وما تتلطبــه من استعداد :

(أ) يكفى عدد قليل من الدعاة اذا كان المدعوون فى مستوى نفسى متقارب ··

(ب) اذا اختلفت مشارب المدعوين ·· فكثـــرة الدعاية مطلوبة ··

لأن تباين المشارب يستدعى دعـاة بعدد هــذه الألـوان ·· ليـــدخلوا الى القـــلوب من زواياها المختلفة ··

وقد يخطر للجمع من الدعــاة مالا يخطر على بال الواحد ·· وقد تهتدى نفوس بأسلوب قليل العلم ·· ولا تهتـــدى بأسلوب عالم غزير المادة لم يتمكن من الوصول الى نقطة الاقناع فى قرارة النفوس ·

(جـ) ينبغى أن يؤخــذ فى الاعتبــار أن الدعوة للايمان ابتداء على جانب كبير من الصعوبة ·· لأنها نقلة بعيدة من وضع ·· الى وضع مختلف تماما ·· بينما الدعوة للأحكام العملية من السهولة بمكان ·· من حيث انك تدعو اليهـــا أناسا مؤمنين أصلا ··

واختلاف هذه المواقف يستدعى بصرا بحسن مواجهة المواقف بما هو أهل لها من تدبير .

(د) قد تكون هناك جماعة متسلطة .. تمسك بمقاليد الأمور فى الدولة .. ومشكلة الدعوة الأولى مع هؤلاء أنها تطمع فى اصلاح نفوسهم أولا .. بل المشكلة بالدرجة الأولى تتلخص فى تنبيههم الى خطر مسلك الطغاة .. وأن لهم اخوة قبلهم طغوا فأهلكهم الله .

مثل هذا الصنف يحتاج الى كثرة من الدعاة على طراز خاص من الشجاعة الأدبية لا تنعقد ألسنتهم عن الحق .. ولا تنقبض أيديهم عن تغيير الباطل ..

يتعاونون على البر والتقوى فى مواجهة أولئك الذين يتعاونون على الاثم والعدوان . وبهذا التعاون يشد بعضهم أزر بعض ..

ولقد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم : أبا موسى ومعاذ بن جبل الى اليمن . وقال لهم : (يسرا ولا تعسرا . وبشرا ولا تنفرا . وتطاوعا) .

ان الانفراد قد يحمل على اليأس .. ومن هنا كانت الصحبة أنسا للنفس تقوى به على أمر الله .

وحين نتأمل ما تقوله اللغة فى لفظ « أمة » نقرأ قوله تعالى :

ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ..

وقوله تعالى : ومن قوم موسى أمة ..

فالأمة مأخوذة من الائتمام .. أى يأتم بعضهم ببعض .. ويتكاملون .. فى وحدة لا تنفصم عراها .

فلفظ « قوم » أقل عددا .. فهو أليق بالاطلاق على الدعاة .. ولفظ « الأمة » أكثر عددا فهو أليق بالمدعوين ..

لكن اختيار لفظ الأمة للدعاة مع هذا لفت للأنظار الى ما يشعر به اللفظ من معنى التعاضد والتناصر والذى يشع من لفظ « الأمة » وما يفرضه ذلك من ضرورة أن يقبس الدعاة منه سر وحدتهم وقوتهم(١) .

وهو المعنى الملحوظ فى قوله تعالى :

(والعصر ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصلوا بالحق وتواصلوا بالصبر) .

---

(١) راجع فى هذا الموضوع الدعوة الى الاصلاح للشيخ الخضر حسين .

هل تجوز الاستعانة بالغير ؟

في بيعة العقبة الكبرى قال صلى الله عليه وسلم :

(تبايعونى على السمع والطاعة فى النشاط والكسل(٢) والنفقة فى العسر واليسر ٠ وعلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ٠

وأن تقولوا فى الله لا تخافوا فيه لومة لائم ٠٠ وعلى أن تنصرونى فتمنعونى اذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ٠ ولكم الجنة ان وفيتم)(٣) ٠

واذن ٠٠ وتأسيسا على هذا فلا مانع من الاستعانة بالغير والطمع فى حمايته ٠

الاستعانة بالكافر :

يقول الشاعر :

وليت من لم يكن بالحق مقتنعا
يخلى السبيل ولا يؤذى من اقتنعا

ولكن أعداء الحق لا يقتنعون به ٠٠ ولا يفسحون

---

(٢) الحرب والسلم ٠
(٣) السيرة لأحمد التاجى ٠

الطريق لتعبر كلمة الله الى قلوب متطلعة الى هداية السماء ..

ومن واجب الدعاة أن يعالجوا الموقف بحكمة تفوت على هؤلاء الماكرين أغراضهم .. وقد يباح لهم الاستعانة بالكافر من منطق الوفاء للدعوة ذاتها ..

وفى تاريخنا شواهد تؤكد ذلك :

١ ـ حماية أبى طالب للرسول صلى الله عليه وسلم .

٢ ـ ذهابه للطائف يلتمس النصرة من ثقيف .

٣ ـ لما عاد من الطائف أرسل للمطعم بن عدى يطلب جواره . فأجاره .

٤ ـ لما عاد المسلمون من الحبشة لم يستطيعوا دخول مكة الا استخفاء أو فى ظل حماية واحد من المشركين .

٥ ـ الاستعانة بعبد الله بن اريقط فى الهجرة .

٦ ـ عرض ابن الدغنة جواره على أبى بكر فقبل .

لكن أبا بكر رد اليه جواره لما أراد ابن الدغنة التدخل فى عقيدته ..

فأفصح بذلك عن الشـرط الأساسى لقبول هـذه الحماية وهو :

ألا تكون على حساب المبادىء .. والا فلا تجـوز بحـال .

وعندما تأثر أبو طالب يوما بعتاب قومه بشـأن محمد قال له :

فابق على وعلى نفسك .

فقال صلى الله عليه وسلم :

واللـه لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمـر فى يسارى .. الحديث(١) .

معنى هذه الحماية :

١ - انها تهيىء الجو أمـام الداعية ليقول كلمة الحق فى ظروف مناسبة .

٢ - عدم تبديد الجهد فى رد العدوان المستمر .

٣ - من دخل فى الاسلام بعد صلح الحديبية كان

---

(١) راجع السيرة النبوية .

أكثر ممن دخل بعده لما تهيأت الظروف وهدأت العاصفة .

٤ - المشرك المستعان به - على حد تعبير بعض العلماء - رجل يلتقط الشوك من طريق الداعية .. ومن ثم فهو مسخر لنصرتها - رغم أنفه - حتى تستوى على سوقها .

دلالة

الأمر بالمعروف

ماذا يعنى : الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

والجواب : أنه وظيفة تشترك بها الأمة فى ادارة دفة الحكم بهذه الرقابة الشعبية الممنوحة لها بحكم ايمانها بالله ورسوله ..

فلها حقها فى أن تقول : لا .. للمنحرف عن سواء السبيل .. ومعنى ذلك أن يقف كل فرد فى الأمة الاسلامية على ثغرة فى الدولة يقظا فلا تؤتى من قبله ..

وبذلك تسد كل منافذ الشر فلا تهب رياح الفتنة مع هذه الرقابة المستمرة ..

أى أن الجو يصير بهذه اليقظة مناسبا لنهضة الأمة واستثمار طاقاتها فى تربية صالحة من ديقراطية هى

أعلى ما يتصوره بشر .. وهى سر الخيرية التى هى سمه الامة الاسلامية .

(كنتم خير أمة أخرجت للنــاس تامرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) وحين توعـــد الرسول صلى الله عليه وسلم الساكتين عن الحـــق فى قوله (لتامرن بالمعــروف ولتنهون عن المنــكر او ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلايستجاب لهم) كان ذلك الانذار ملفتا الى اهمية الكلمة الواعظه الزاجرة فى تنقية ضمائر الامة وتقوية صفوفها .. قبل ان يصل بها السكوت الى مرحلة يستشرى فيها المنكر ويسيطر الاشرار على مقاليــد الأمـــور .. فيعزلون الاخيار عن المنصة ..

هؤلاء الأخيار الذين لا يملكون حينئـــذ الا الدعاء أن يكشف الله البلاء .. وهيهات أن يستجاب لهم . من حيث جاءت الدعوة متأخرة .وكان يجب أن تواكب ظهور المنــكر ابتــداء قبـــل أن يستفحل ويستحيل عـــلاجه .

واذا كانت هـــذه مسئولية العلماء الكبـرى فان علماءنا يحملون العـــامة مسئولياتهم أيضا والتى تتلخص فى :

١ ـ أن يرفعوا للعلماء ما خفى حكمه من أخطاء المجتمع ليقولوا كلمة الفصل فيه .

٢ - أن يسوقـوا الظالمـين الى الحـكام ٠٠ ولايهدأون حتى ينفذ فيهم حكم الله شريطة ألا يترتب على ذلك أشر منه ٠

٣ - عدم الاستكانة الى هذا الشعار :

« ليكنس كل منا فناء داره ٠ لتعم النظافة »
لأننا اذا اكتفينا بذلك فسوف يحمل البعض الزبالة الى الأماكن المكنوسة !!

وفى ضوء هذه العجالة يمكن أن نقول ان مواجهـة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية انما هى مدخل لنهضـة الامـة التى تتحطم أمامها حواجز الانطلاق لانقاذ شعب بأسره ٠٠ وايقاظ ملكة النقد فيه ليقول كلمة الحق ٠٠ وصولا الى رأى عام له وزنه فى تسيير دفة الأمور فى اتجاه الاسلام ٠٠

المواجهـــة :

بعد أن بين الحـق سبحانه وتعـالى كيف حفظ موسى فى التابوت رضيعا ٠٠ وما يثمـره ذلك من يقين ثابت باللـه تعالى وينصره ٠٠ يكلفه سبحانه وتعالى بمواجهة فرعون فى صحبة هذه الثقة الوطيدة الناشئة عن سابق فضله تعالى عليه :

(اذهب أنت وأخـوك بآياتى ولا تنيا فى ذكرى ٠

اذهبـا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينـا لعله يتذكر أو يخشى) ٠

ما هو القول اللين :

ذكر المفسرون(١) أن المراد بالقـول اللين تكنية فرعون بواحدة من كنى ثلاث :

« أبو العباس » « أبو الوليد » « أبو مرة » ٠

وقيل : ان القول اللين ما صرحت به آيات سـورة النازعات :

(فقـل هل لك الى أن تزكى وأهـديك الى ربك فتخشى) وهو رأى ابن مسعود ٠

وفى المراد به يقول ابن كثير :

(قولا له : ان لك ربا ٠ ولك معادا ٠ وان بين يديك جنة ونارا) ٠

(وقال وهب بن منبه ٠ قولا له :

انى الى العفو والمغفرة أقـرب منى الى الغضب والعقوبة) ٠

(وقيل : قال له موسى :

---

(١) القرطبى ٠

تؤمن بما جئت به · وتعبـد رب العالمين · على أن لك شبابا لا يهرم الى الموت · وملكا لا ينزع منك الى المـوت · وينسأ فى أجلك أربعمـائة سنة · فاذا مت دخلت الجنة فهذا القول اللين)(١) ·

دلالـة هـذه الآراء :

١ ـ تجـوز تكنية الكافر اذا كان وجيهـا فى قومه ·· طمع فى اسـلامه أم لا · (لأن الطمع ليس بحقيقة توجب عملا · وقد قال صلى الله عليه وسلم : « اذا أتاكم كريم قوم فأكرموه » ولم يقل وان طمعتم فى اسلامه) ومن صورة الاكرام دعاؤه بالكنية :

وقد قال صلى الله عليه وسلم لصفوان بن أمية : أنزل أبا وهب ·

وقال لسعد : ألم تسمع ما يقـول « أبو حباب » « يعنى عبد الله بن أبى)(٢) ·

٢ ـ تجوز عدة المدعو بشىء من منافع الدنيا ·· تجـاوبا مع الفطرة الانسانيـة التى تستجيب لمثـل هـذه المنافع ·· وتعطى زمام أمرها لمن يلوح لهـا بذلـك ··

---

(١) القرطبى ·
(٢) راجع القرطبى ·

يقول سبحانه وتعالى :

(فقلت استغفروا ربكم انه كان غفارا يرسل السماء عليكم مدرارا ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا)(١) .

واذن فلا بأس من التودد والتحبب الى المدعو وان كان فى قمة الطغيان :

و (هذه الآية فيها عبرة عظمية : وهو أن فرعون فى غاية العتو والاستكبار . وموسى صفوة الله من خلقه اذ ذاك . ومع هذا أمر أن لا يخاطب فرعون الا بالملاطفة واللين . كما قال يزيد الرقاشى عند قوله « فقولا له قولا لينا » :

يامن يتحبب الى من يعاديه . فكيف بمن يتولاه ويناديه)(٢) .

(وقال يحيى بن معاذ فى هذه الآية :

هذا رفقك بمن يقول : أنا الله ..

فكيف رفقك بمن يقول : أنت الاله ؟ !)(٣) .

---

(١) نوح ١٠ : ١٢ .
(٢) ابن كثير .
(٣) القرطبى .

وواجب الدعاة هنا أن يعوا هذا الدرس جيدا اذا كانوا فعلا يتحرون المضى على هدى القرآن :

(فاذا كان موسى أمـــر بأن يقول لفرعون قولا لينا ·· فمن دونه أحرى بأن يقتدى بذلك · فى خطابه وأمره بالمعروف فى كلامه)(١) ·

وعلى الداعية أن يفهم أيضا أنه بدعوته العصاة يغالب من طبائع النفوس ما يشبه الموجه العاليـــة الطاغية · وتبدو صعوبة الموقف فيما يلى :

١ ـ انه يقف ضـــد ميولهم ونزعاتهم المندفعـة نحو الشرور ·

٢ ـ يعدهم بحياة أبدية ·· لكنهـــا متوقعة ·· وليست بواقعة ·

٣ ـ وانتظار المتوقع مقلق للنفوس ··

٤ ـ وتزداد نسبة القلق اذا ما تصورنا سهولة الحصول على المتع الدنيوية المتاحة ·· والتى تطوق الانسان من كل جانب ··

٥ ـ عوامل الشر أظهر من دواعى الخير ··

٦ ـ النفوس أقرب الى المحسوس منهـــا الى المعقـــول ··

---

(١) الموضع السابق ·

٧ ـ كل أولئك يحجب النفوس فلا ترى الحق ·· ويصرف القلب فلا يتجه اليه ··

وادراك هذه العقبات عبر الطريق ·· يفرض على الدعاة أن يجتازوها برفق وحذر وحكمه ·

على أن هناك فوائد أخرى تعود على الدعوة ذاتها من وراء المصابرة وضبط النفس فى بعض الاحيان ومن هذه الفوائد :

١ ـ توفر الفرصة لفهم أوسع لتحركات المعاندين ·

٢ ـ تخليص الدعوة من التشويش عليها ·

٣ ـ ربما تساءل المعاندون ازاء هذا الصبر الجميل وقالوا :

ما فعل المحقون ذلك الا لوجه الله تعالى ·· لا لحظوظ أنفسهم ·· والا فحظ النفس هنا هو رد العدوان بمثله أو أشد ··

ولما لم يفعلوا ·· دل ذلك على أنهم يتحركون طبق دواعى الحق ولحساب ارادة عليا فوق حظوظ النفوس ·· وذلك ولا ريب مدخل الى تفاهم يحقق

الفهم الصحيح لمبـادىء الاسلام ·· والدخـول فى رحـابه(١) ·

لمـاذا القـول اللين ؟

يقول شاعر فارسى :

(ان الزمن لا يتواءم معك ·· وأنت فى خصـام مستمر مع الزمن) واذن فلابد من محاولة تزامل غيها ذلك الزمن فى سيره ·· وبدل أن تواجهه ·· تستعلى به الى الآفق الذى تريد ·· قرارا من عداوة مستمرة لاتحقق فيها أملك ·· ان صدام الغرائز من شأنه أن يولد الانفجار ·· فهى لذلك فى حاجة الى عمليـة استعلاء تقلم فيها حوافز الشراسة ودوافع الانطلاق الطـائش ·

ومعنى ذلك :

أن الداعية مطالب أحيـانا أن يساير الأوضـاع باللين ·· لحساب غد تستقر فيه الأوضاع على حقائق الاسـلام ··

وهذا ما يشير اليه الشاعر الهندى « حالى » ·

(اتجه أنت فى اتجاه الريح) !

---

(١) راجـع فى هـذا المعنى : الدعـوة فى عهـد المـكى للدكتور متولى شلبى ·

ولا يقصد بذلك أن تصير قشة تلعب بها الرياح ٠٠ وانما هى ارادة تطويع الحـــوادث لتمتلك بالتطويع زمامهــا ٠

١ - وفى مجــال الدعوة تمس الحاجة الى اللين فى مواجهة الطغاة بالذات :

والعارفون بطبائع النفوس يقولون :

لاتخاشن العاصى وأنت تدعوه الى الحق ٠٠ فتجمع عليه مرارتين :

مرارة التخلى عن عادة أنس بها زمنا ٠٠ ثم مرارة الشدة المزعجة له ٠٠ واذا كان اللين واجبا هكذا ٠٠ فان نسبة أكبـــر من ذلك اللين ٠٠٠ لابد من توفرها عند مواجهة طاغية كفرعون :

ان موسى عليه السلام لا ينتزعه من عادة يسهل الاقلاع عنها ٠٠ بــل انه يريد فطمه من طغيان تمشى فى دمـــاه ٠٠ وحرمانه من شهوة التحكم فى حيـــاة البشر ٠٠ وهذا بالنسبة له مسألة حياة أو موت !

ومن ثم يتطلب الوضـــع نسبـــة من اللين أعلى ٠٠ علاجا للثورة المحتملة !

ثم ٠٠ ان الذى يدعوه موسى عليـــه السلام ليس رجلا عاديا يكتفى من صور الرفض بالبعد عنك ! ٠٠

لكنه يملك من وسائل القوى ما ينهى حياة الداعية في غمضة عين !

فاللين هنا أكبر أهمية ٠٠ حتى لا يجمع على فرعون مرارتين كل واحدة ٠٠ أكبر من أختها وتأييدا لذلك يذكر الرازى كيف جاز لابراهيم عليه السلام أن يقول : هذا ربى للكوكب المخلوق لما كان ذلك سبيلا الى انقاذ أمة بأسرها ٠

قال الامام الرازى فى تفسيره :

(انه عليه السلام لما لم يجد الى الدعوة التى أمر بها طريقا سوى هذا كان بمنزلة المكره على كلمة الكفر وقلبه مطمئن بالايمان ، فانه يجوز له النطق بها ظاهرا مع انكار قلبه ، وذلك ليتيسر له أن يورد الدليل المبطل لقولهم وهم مستمعون له ، فاذا جازت كلمة الكفر لبقاء شخص واحد ، فلأن تجوز لتخليص عالم من العقلاء من باب أولى ، ثم قال : ومما يقوى هذا القول أنه تعالى حكى عنه مثل هذا الطريق فى موضع آخر وهو قوله تعالى « فنظر نظرة فى النجوم فقال انى سقيم » أى عليل مريض ، وذلك لأن القوم كانوا يستدلون بعلم النجوم على حدوث الحوادث المستقبلة ، فوافقهم فى الظاهر مع أنه كان بريئا عنه فى الباطن ليتوصل الى كسر الأصنام ،

فمتى جازت الموافقة لهـذا الغرض فلم لا تجـوز فى مسئلتنا لمثل ذلك) .

واذن .. فالتـودد مطلوب اذا كان جسـرا الى مصلحة تتصـل بالدعـوة فى مرحـلة من مراحلها وتصوير طبائع الجبابرة يقول أيضا :

(من عادة الجبـابرة اذا غلظ لهم فى الوعظ أن يزدادوا عتوا وتكبرا . والمقصود من البعثة حصول النفع لا حصول زيادة الضرر فلهذا أمر الله تعالى بالرفق) .

٢ - حين نتأمل أحوال القلب البشرى فى صلته بالحق .. ندرك أثر القول اللين فى تحقيق قـدر من النجاح مهما كان ضئيلا .

واذا بدت نعمة الله على المسلم فى : زحزحته عن النار أولا .. ثم فى دخوله الجنة ثانيا .. فان الكلمة الطيبة قد تنأى بالمنـكر فتهز من اصراره .. ليغير موقفه الى حد ما .. ولو لم يدخل فى دائرة الحق ..

وفى هذا المعنى يقول الفخر الرازى :

(أحوال القلب ثلاثة :

أحـدها : الاصرار على الحق .
وثانيها : الاصرار على الباطل .
وثالثها : التوقف فى الأمرين .

وان فرعون كان مصرا على الباطل · وهذا القسم أردأ الأقسام · فقال تعالى :

(فقــولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) فيرجع من انكاره الى الاقــــرار بالحق · وان لم ينتقل من الانكار الى الاقرار لكنه يحصل فى قلبه الخوف فيترك الانكار ·· وان كان لا ينتقل الى الاقــــرار ·· فان هذا خير من (الاصرار على الانكار) ·

أى أن شعور الخــوف المنبعث من وراء القـــول اللين ·· لاشك تارك أثــره على بطش فرعون كسرا لحدته وتقليما لأظافره ··

وربما شغله الخوف عن التدبير لضرب الدعوة ·

وهذا الوقت مرصود بطبيعة الحال للدعوة التى تنشط فى غيبة الطغيان المشغول بمخاوفه ·

وتصويرا لهذا الرفق يقول الشاعر الحــــكيم فى هذا المقام :

وأنت الذى من فضل من ورحمة
بعثت الى موسى رســـولا مناديا
فقلت له يا اذهب وهارون فادعوا
الى الله فرعون الذى كانطاغيا
فقولا له : هــل أنت سويت هذه
بلا وتد حتى استقلت كما هيا ؟!

وقـــولا لــه ا أنت رفعت هــذه
بلا عمد ؟ـ أرفق (١) ـ اذا بك بانيا

وقــولا له آ أنت سويت وسطهــا
منيرا اذا ما جنه الليل هاديا ؟

وقولا له : من يخرج الشمس بكرة
فيصبح ما مست من الارض ضاحيا ؟

وقولا له من ينبت الحب فى الترى
فيصبح منــه البقل يهتز رابيا ؟

ويخرج منه حية فى رءوســــه
ففى ذاك آيات لمن كان واعيــا ؟

وتأكيدا لهذا المعنى يقول الأستاذ محمــد الراشد مبينا أهمية الرفق الموصول بمعين الحق :

(أحسن شىء : كلام رقيق ، يستخرج من بحـــر عميق ، على لسان رجل رقيق) (٢)

وأحسبه يعنى مثل هـــذا الكلام الرقيق ، الذى استخرجته لك ـ أيها الداعية ـ من بطون هذه الكتب

---

(١) ارفق فعـل تعجب ٠ وبك فى موضـع رفع ٠ لأن المعنى رفقت ٠ وبانيا تمييز لأنه يصلح أن يجر بمن كما تقول : أحسن بزيد من رجل ٠

(٢) تاريخ بغداد ٢٠٩/١٤ ٠

العميقة · وغيرى انما خلط ما استخرجه من الساحل بما ظفر به من الأعماق ، وأبيت أنا الا أن استخرج لك من الأعماق فحسب ، ولم أرض الا كل نادر بليغ · وستعلم كما من الرفق كانت تحمله قلوب هؤلاء الرجال الذين أهدوا لك ثمرات تجاربهم ونتائج تأملاتهم ، فخلدت كلماتهم وسرت فى الناس ، معلنة عما لها من الاتصال بسند الحق ·

ولن تخلد الكلمة على الاجيال الا أن اتصلت بالحق والخير ، وكان لها من قوانين الله فى خلقه سند ، ومن الهامه لعباده مدد ·

ورب بارقة يرمى بها سلطان مسلط ، أو صنم مشهور ، فتدرى حينا ، وتأتلق زمانا ، ثم تصمت وتنطفىء ، وتكون كالشهاب يحور رمادا بعد التهاب ، بما كان دويها من صوت الباطل لا الحق ، وائتلاقها من زخرف الكذب لا الصدق ·

ولا ينطق بكلمة الحق الخالدة الا عقل مدرك ، وقلب سليم · الا قائل يعتد بنفسه ويثق برأيه ، فيرسل الكلام أمثالا سائرة ، وبينات فى الحياة باقية ، لا يصف وقتا محدودا ، ولا أمرا موقوتا ، ولا انسانا فردا ، ولا حدثا واحدا ، ولكنه يعم الأجيال والأعصار ، والبلدان والأقطار ·

وعلى قدر عظم القائل : تجد هذا العموم فى قوله ، يبغى أن يجعل كلماته للنـــاس منهاجا ، وفى ظلمات الحياة سراجا وهاجا)(١) ٠

من ثمرات القول اللين :

هل حقق القول اللين مقصوده ؟

والجواب : نعم ٠٠

ولقد ظهر ذلك فى أمور ثلاثة :

١ ـ تراجع فرعـون ٠ ٠وتوقف بطشه وسطوته ٠٠ وتوفرت الظروف المناسبة أمام الدعوة ٠

٢ ـ ايمـان السحرة ٠

٣ ـ مؤمن آل فرعون ٠

١ ـ تراجــع فرعــون

(أ) كان فرعون بالأمس يقول : أنا ربكم الأعلى ٠٠ ثم صـار اليـوم يخاطب موسى وهارون بأسلوب أخر ٠٠ وذلك فيما حكاه القرآن الكريم ٠

---

(١) الشوارد لعزام / ٣٤٠ عن المنطق ٠ محمد أحمد الراشد ص ٢٦ : ٢٧ ٠

(قال فمن ربكما يا موسى ..

... قال فما بال القرون الأولى ..)

فقد اتسع صدره وتصور انها غيره - !! - وها هو ذا يتساءل عنه .. مع ملاحظة أن فرعون دخل معهما فى حوار ولم يبدأهما بالعدوان واستعمال القوة .. وكان هـذا أسلوبه دائما فى معالجة الامور - وقد أشـار لمفسرون الى ذلك - واذ ينأى الطاغية بنفسه عن أسلوب العنف ابتداء . فأولى بالدعاة أن يعوا هذا الدرس المفيد يأتيهم من بعيد !

(ب) ولا ننسى كيف مهـد لهذا التراجع بحكمة موسى عليه السلام وأخيه هارون .. تلك الحكمة التى اتجهت بالحوار اتجـاها مثمرا .. وكان من صورها استماعها لرأى الطاغية مع وضوح بطلانه .

ولا بأس أن يستمع المحـق لرأى المبطل .. ليبـدأ دور الداعية الايجابى بالكر عليه . وتحطيمه بالبرهان تحطيما لا يبقى له على أثر .

(جـ) ولقد وقع التذكر من فرعون فعلا . وان كان بعد فوات الأوان :

يقـول القرطبى :

(وقـــد تذكر فرعون حين أدركه الغرق . وحشى

وقال « آمنت أنه لا اله الا الذى آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين » ولكن لم ينفعه ذلك) ٠

وقد قيل :

ان فرعون ركن الى قول موسى لما دعاه ٠ وشاور امرأته فآمنت ٠ وأشارت عليه بالايمان ٠ فشاور هامان ٠

فقال : لا تفعل :

بعد أن كنت ملكا تصير مملوكا ٠ وبعد أن كنت ربا تصير مربوبا) ٠

وعلى أى حال : فقد تركت الكلمة الطيبة آثارها داخل الأسرة ٠٠ فآمن من آمن ومن لم يؤمن بقى على رجاء الايمان ٠

٢ ــ ايمان السحرة

اذا لم يكن فرعون قد آمن ٠٠ فقد طأطأ الخوف رأسه ٠٠ ومرت من فوقه نسمة الايمان ودلائل الهداية الى قلوب متشوقة اليها ٠ مقبلة عليها ٠٠ وهم السحرة : لقد بلغ عددهم فى رأى بعض المفسرين أكثر من عشرة آلاف ٠٠ أعلنوا كلهم ايمانهم برب موسى وهارون ٠٠

ولك أن تتصور كيف وصلت بركة القول اللين ٠٠ وما يترتب على ايمان هذا الجيل المثقف ٠٠ وهم طليعة الأمة وموطن الأسرة فيها ٠

ان بعض النفوس قـــد ترفض الحق جهـــلا ·· لا عنادا ·· وهذا يلزمنـــا الرفق بهم انتظارا لساعة خلاصهم ··

ولعل اتضاح معالم الحق هــذه اللحظة يكون لهم مدخلا الى اعتناق الحق · بل والموت فى سبيله كما فعل السحرة ·

والعارفون بطبيعة النفوس وشموسها يقررون :

ان الناس أعـــداء ما جهلوا ·· بل ان النفــوس (مهما تغلغل فيهــا حب الشر الا أن تذليلها ممكن ·· اذا أفرغ لهـــا الترغيب والترهيب فى قالب متين · بحيث يصرفها عما هى متطلعة اليه) ·

ضرورة الحـــذر :

(قالا ربنا اننا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى · قال لاتخافا اننى معكما أسمع وأرى) ·

حكى القرطبى عن عامر بن عبـــد الله : (أنه نزل مع أصحابه فى طريق الشام على ماء · فحال الأسد بينهم وبين الماء · فجــاء عامر الى المـــاء فأخذ منه حاجته · فقيل له : لقد خاطرت بنفسك · فقال :

لأن تختلف الأسنة فى جوفى أحب الى من أن يعلم الله أنى أخاف شيئا ســـواه ·· فلما بلغ الحسن البصرى ذلك قال :

قد خاف من كان خيـــرا من عامر : موسى عليه السلام حين قال له :

« ان المـــلأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج انى لك من الناصحين • فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين » • وقال :

« فأصبح فى المدينة خائفا يترقب » وقال حين ألقى السحرة حبالهم وعصيهم « فأوجس فى نفســه خيفة موسى • قلنا لا تخف انك أنت الأعلى »)(١) •

فأنت ترى عامرا يغامر بنفسه فى محاولة من دونها الموت •• ويرى أن ثقــة المسلم بربه تفرض عليـــه ألا يخاف من شىء سواه سبحانه ••

ولكن الحسن رضى اللـــه عنـــه ـ تجاوبا منه مع طبيعة البشـــر ـ يضرب المثل بموسى عليه السلام • الذى سجلت الآيات خوفه •• ولا غضاضة فى ذلك •• وانما هو القدر المقـــرر فى طبيعة الانسان كبشـــر تعتـــوره مختلف العواطف والمشاعر المؤسسة على غرائز حب الذات والحرص عليها ••

لقد تربى موسى عليه السلام فى قصر فرعون ••

---

(١) تفسير سورة طه •

ورأى بعينه صـــور النكال بأفراد الشعب داخـــل القصـــر ٠٠

ثم هو قد قاس قدرته كداعيـة ازاء قـدرة المدعو وما يملك من قوى وطاقات ٠٠ فهو يتصرف ٠٠ ويتخذ المواقف على هـذا الأساس ٠٠ وجـــاء خوفه نتيجة طبيعية لبعد المسافة بين القوتين :

هو وأخوه هارون فى جانب ٠٠ والدولة كلها فى جانب آخر ٠٠ واذن فهو الخوف الذى يمكن أن نسميه حذرا لابد منه ٠٠

والحذر كما جاء فى لسان العرب :

تيقظ ٠٠ وتحرز ٠٠ وتأهب لـــكل ما يسفر عنه الغد من مفاجآت ٠٠ حتى اذا دهمت الداعية كان له من سابق التقـــدير والتوقع والاحتيـــاط ما يقلل من آثارها على الأقل ٠٠ ومن التفريط فى جنب الدعـــوة أن نتجاهل الواقع ٠٠ متواكلين ٠٠ والمفروض علينا أن نعقلها ٠٠ ثم نمضى متوكلين ٠٠ والفرق واضح بين الموقفين ٠٠

من صور الحـــذر :

(حفر النبى صلى الله عليه وســلم الخندق حـــول المـــدينة تحصينـــا للمسلمين وأموالهم ٠ مع كونه من التوكل على الله بمرتبة لم يبلغها أحد ٠

ثم كان من أصحابه مالا يجهله أحد : من تحولهم عن منازلهم : مرة الى الحبشة .. ومرة الى المدينة تخوفا على أنفسهم من مشركى مكة . وهربا بدينهم أن يفتنوهم عنه بتعذيبهم .

وقد قالت أسماء بنت عميس لعمر لما قال لها سبقناكم بالهجرة فنحن أحق برسول الله صلى الله عليه وسلم منكم : كذبت يا عمر - !! - كلا .. والله كنتم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يطعم جائعكم . ويعظ جاهلكم . وكنا فى دار - أو أرض - البعداء - أى فى النسب - البغضاء(١) فى الحبشة وذلك فى الله ورسوله . وأيم الله لا أطعم طعاما . ولا أشرب شرابا حتى أذكر ماقلت لرسول الله صلى عليه وسلم . ونحن كنا نؤذى ونخاف .

قال العلماء : فالمخبر عن نفسه بخلاف ما طبع الله نفوس بنى آدم عليه كاذب . وقد طبعهم على الهرب مما يضرها ويؤلمها أو يتلفها . قالوا :

ولا ضار أضر من سبع عاد فى فلاة من الأرض على من لا آلة معه يدفعه بها عن نفسه من سيف

---

(١) البغضاء فى الدين وقول أسماء كذبت معناه : أخطأت وقد استعملوا كذب بمعنى أخطأ .

أو رمح أو نبل أو قوس وما أشبه ذلك)(١) ·

ان الخوف من الأعداء ـ اذن ـ سنة الله فى أنبيائه وأوليائه مع معرفتهم وثقتهم به كما يقول العلماء ·

(ومن تعريف ـ الحذر ـ لغة تبين لنا أنه يقوم على أساس المعرفة وأخذ الحيطة ·فالحذر يعرف مدى ضرر المكروه المتوقع حصوله فيخاف من وقوعه خوفا يدفعه الى أخذ الحيطة والتحرز · ومباشرة الأسباب لمنع وقوعه أو لدفعه اذا وقع ·

فهو ليس بخوف مشوب باستسلام وقعود وانخلاع الفؤاد · واضطراب الفكر · وتشوش البال · واليأس من الخلاص والاستسلام له قبل الوقوع · ولهذا فالحذر بالمعنى الذى بيناه محمود غير مذموم · وهو من صفات أهل الايمان والعقل السليم · والفهم الدقيق لسنن الله فى الكون ·

لا من صفات أهل الطيش والحماقة وقصر النظر ·

وهؤلاء لا يعرفون الحذر · ولا تتسع له عقولهم · لأنهم لا ينظرون الى أبعد من أنوفهم · ولا يحسون بالمكروه المتوقع الحصول الا اذا وقع فعلا(٢) ·

---

(١) القرطبى ـ الموضع السابق ·
(٢) أصول الدعوة ٤٣٠ : ٤٣١ ·

والآيات الكريمة والسنة المطهرة شاهدان بأهمية الحذر ضممانا للسلامة وأمانا من رد فعل المفاجأة : قال تعالى :

(يا أيها الذين آمنوا خذوا حذركم ٠٠٠٠٠)(٣) ٠

(واذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم ٠ فاذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم)(٤) ٠

ومن يتأمل حادث الهجرة بكل ظروفه وملابساته يقف على كثير من صور الحكمة والحذر كى تتم الخطة بنجاح ٠٠

وليس هناك على ظهر الأرض من هو أوثق صلة من محمد صلى الله عليه وسلم بربه ومع ذلك فقد كان حذرا ٠٠ ولم يقدح ذلك فى ايمانه بخالقه سبحانه ٠٠

وهكذا يجب أن يكون الدعاة :

قد تفرض عليهم الظروف لونا من الحذر ٠٠ فليأخذوا للأمر عدته ٠٠ فان وقع المحذور ٠٠ كانوا له ٠٠

---

(٣) النساء ٧١ ٠
(٤) النساء ١٠٢ ٠

والا ·· فلم يخسروا بالاحتياط شيئا ·

على أن الخوف هنا لم يمنع موسى وهارون عليهما السلام من الانطلاق بعد أن أمنهما ربهما سبحانه :

(اننى معكما أسمع وأرى)

ومعلوم أن الضمان هنا معناه :

حمايتهما من بطش فرعون ·· أما حمايتهما من تكذيبه ورده الدعوة فليس واردا ·· فلا بد أن يخوضا المعركة ·· وأن يدفعا ضريبة الجهاد صبرا وتحملا ·· بعد أن ضمن الله لهما البقاء ·· ورد عنهما كيد فرعون ··

وتلك سنة من سنن الدعوات ·· لبوطن الدعاة أنفسهم على بعد الشقة وقلة الزاد·ووحشة الطريق··

صحيح أن الباطل لن يتمكن من اسكات الحق الى الأبد ··

وسوف ينتصر الحق فى النهاية ··

ولكن ·· لابد من الوصول الى هذا النصر المأمول على جسر من المتاعب والتضحيات ·

الحكمة تظلل الموقف :

وانك لترى شواهد الجدال بالتى هى أحسن فى تضاعيف الآيات الكريمة بعد ذلك ··

ترى اللين ساريا كروح الحياة فيما دار بين الحق والباطل من حوار .. ولم تبدر من موسى عليه السلام كلمة نابية ولا جارحة ..

وما الذى يلجئه الى كلمة من هذا النوع ؟ !

ان معه من أنس الحق . ومعية الله تعالى . وثقته بوعده .. وانتصار دعوته ما يثبت قلبه فلا يضطرب .. وما يصون لسانه فلا يعبر الا عن الحق فى ثباته وشموخه ونزاهته !

ولعل فرعون - حين يفتح عينيه ليرى موسى وأخاه .. رجلين .. فقط .. ثابتين ازاء مملكة بأسرها يتربع من فوقها فرعون ومع ذلك يدعوانه الى الحق فى ثبات الواثق بنفسه .. ربما فت ذلك فى عضده .. وزلزل الأرض من تحت قدميه ..

واذن .. فما دام الزمن يعمل لحسابنا - ولو على المدى البعيد - فلنقل كلمتنا بهدوء .. ثم نمضى .. وانها لتاركة آثارها حتما .. فى نفوس .. ان لم تؤمن .. فسوف يعقد الاحراج ألسنتها .. وتكفينا مئونة التشويش !!

!

ونقرأ قوله تعالى :

(انا رســـــــولا ربك) ٠

(قد جئناك بآية من ربك) ٠

فنلمح تكرار لفظ الربوبية مضافا الى فرعون ٠٠ ترغيبا ٠٠ وتحببا ٠٠ فى جو من السلام والأمن لايسمح لخواطر الانتقام أن تثور فى نفس فرعون :

حكم القاء السلام على الكافر

(والسلام على من أتبع الهدى)

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنه :

(أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم : أى الاسلام خير؟ فقال : تطعم الطعام · وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف)(١) ·

قال ابن وهب وابن عيينة ومحمد بن كعب :

يجوز ابتداء السلام على كل أحد ولو كان كافرا · وقد استدلوا على هذا بالآيات الكريمة ·

(وقولوا للناس حسنا) ·

فالآية تأمرنا بأن نقول للناس ـ وليس للمسلمين فقط ـ من القول أحسنه ·· والسلام داخل فى هذا الأمر ·· لأنه قول حسن ··

وقوله (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين· · الآية)(٢) ومن صور البر أن نسلم عليهم ··

---

(١) أخرجه الشيخان والنسائى « كتاب الايمان » ·
(٢) الممتحنة ·

ونتلطف معهم لا تزلفا ·· ولكن تألفا ·· وقوله حكاية عن ابراهيم لأبيه ·

(ســـــــــلام عليك)(١) ·

وقوله (فاصفح عنهم وقل سلام)(٢) ·

وجمهور الائمة على أنه لا يبتدأ الكافر بالسلام ·· ولا العاصى ·· تأديبا له حتى تظهر توبته ·

والاصل فى ترك السلام على المؤمن الذى اقترف ذنبا ما صنعه النبى صلى الله عليـــه وسلم بكعب بن مالك وصاحبيه حين تخلفوا عن غزوة تبوك · فقاطعهم النبى والمؤمنون خمسين يوما ·· حتى (ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضـــاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله الا اليه ثم تاب عليهم)(٣) ·

وأما عدم السلام على الكافر فالأصل فيه قوله صلى الله عليه وسلم :

(لا تبـــدءوا اليهـــود والنصـــارى بالســـلام واذا لقيتموهم فى طـــريق فاضطـــروهم الى أضيقـــه)(٤) رواه مسلم ·

---

(١) مريم ٤٧ ·
(٢) الزخرف ٨٩ ·
(٣) التوبة ١١٨ ·
(٤) حمـــله الأكثر على التحـــريم وقيل التنزيه · قال القرطبى :
=

قال المـــانعون :

هـــذا نص خاص تقيـــد به العمومات المخالفة له · كما هى القـــاعـــدة الاصـــولية · واجـــابوا عن ادلة المجـــوزين :

بأن سلام ابراهيم لم يكن سلام تحية ·· بل سلام اعراض ومتاركة ·· وكذلك يقال فى (فاصفح عنهم وقل سلام) وأشباهه ·

وربما شهد للمجوزين قوله صلى الله عليه وسلم :

(المسلم من سلم الناس من لسانه ويده)(١) ·

فاسلام المرء يفرض عليه ألا يكون مصدر أذى لغيره من النـــاس جميعـــا · مؤمنهم وكافرهم ·· عاصيهم ومطيعهم ·· لأن اسمه مشتق من الاسلام ·· الذى هو فى جوهره مسالمة وتعاطف وبر ··

يس معناه اذا لقيتموهم فى طريق واسع فالجئوهم الى حرفة حتى يضيق عليهم · لأن ذلك أذىً لهم وقد نهينا عن اذاهم بغير سبب ·

بل معناه : اذا كنتم فى طـريق ضيق فلا تتنحوا لهم عنه تضييقا على أنفسكم واكراما لهم ·

وقال غيره معناه : لا تجعلوا لهم التصدر فى جادة الطريق · بل جعلوا لهم جوانبها · واتفقوا على عدم ايذائهم بالتضييق حتى يصدمهم دار أو نحوه ·

(١) أخرجه الترمذى والنسائى ·

والقاء السلام تحقيق لهذا المعنى ·· بقدر مايؤدى تركه الى الوحشة والخوف ··

روى البيهقى فى شعب الايمان عن أبى أمامة رضى الله عنه ·· أنه كان يسلم على كل من لقيه فسئل عن ذلك فقال :

(أن الله جعل السلام تحية لأمتنا · وأمانا لأهل دمتنا) ·

وقد فرق بعض العلماء بين المحاربين وأهل الذمة ·· وخص الطبرى النهى بما اذا لم يكن هناك ما يدعو الى البدء بالسلام من حق صحبة أو جوار او مكافأة أو نحو ذلك ·

وهذا التفريق مؤسس على صريح الآيات الكريمة من سورة الممتحنة والتى فرقت بين نوعين من الكفار :

فالذين لم يقاتلونا ·· ولم يخرجونا من ديارنا ·· لا مانع من برهم والاحسان اليهم ·· أما من بلغ بهم عداؤهم لنا حدا قاتلونا فيه وأخرجونا من ديارنا فنحن ممنوعون من برهم ·· وهكذا كله فيما اذا كان السلام بصيغة : السلام عليكم ··

أما اذا كان بغير هذا الخطاب مثل ·

(السلام على من اتبع الهدى) و (السلام علينا وعلى

عباد الله الصالحين) فلا خلاف فى جوازه لثبوته عنه صلى الله عليه وسلم فى دعوته الملوك والأمراء الى الاسـلام ·

وقد كان صلى الله عليـه وسـلم يتألف المشركين وأهل الكتاب ·· وسوغ ذلك صدوره لا عن اعزازهم واكبارهم بل لأنه عنوان شفقته صلى الله عليه وسلم على الخلق ورحمته بهم ·

(وما أرسلناك الا رحمة للعالمين) ·

هذه الرحمة التى وصلت الى حد تشميته من عطس من اليهود بقوله :

(يهديكم الله ويصلح بالكم)(١) ·

وقد قصدنا بهذا البيان فتح أبصار بعض الدعاة الى ما فى الاسلام من رحمة ونداوة تجذب القلوب · وتنشر الا من السابغ فى ربوع المجتمع ·

وشيوع الأمن فى المجتمع يوفـر الفـرص لعمـل اسلامى بلا معوقات ·· وبلا مشاكسات كلامية تستنفد الوقت والجهـد ··

ولقد قال سلفنا الصالح كلمتهم ·· وبقى علينا أن

---

(١) يراجع هذا الموضوع فى (المختار من كنوز السنة) للمرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز ·

نتاسى بهم ·· لنـكون سلما للنـاس ·· وتلك سمة الاقوياء ·· الذين يطلون على غيرهم من عل ·· بعين مشفقة ·· ولا ينظـرون اليهم بدافع من تـكبر لا يتمر الا الشوك ··

لقد كان السلام هنا ·· صورة من صور الترغيب ·· ربما تفتحت به النفس على حقيقة القضية المطروحة ·· والترغيب مرحلة أولى ·· مرصودة لحساب هذه الفائدة المتوقعة ··

الترهيب :

فاذا لم يجد الترغيب ·· فقد حان وقت الترهيب ·

(انا قد أوحى الينا أن العذاب على من كذب وتـولى) ·

ويلاحظ أن موسى عليه السلام لا يواجـه فرعون بالعذاب مباشرة · ولكنه يشير الى أن قوة عليا تملى علينا ما نقول ·· وما علينا الا البلاغ ·· بلاغ حقيقة واضحة هى :

أن العذاب مرصود لكل من كذب رسل الله وتولى عن الحق بعد ظهوره ·· وعلى كل طاغية أن يختـار لنفسه ما يحلو ·

(م ٧ ـ فقه الدعوة)

وحين يخـــرج فرعون من الموضـــوع ·· موضوع النزاع فلا يحاول مناقشة القضية المطروحة ·· بل يفر الى مسارب الماضى فى محاولة للسؤال عن فلان أو علان من الغابرين ·· ما مصيره ؟ حين يفعل ذلك لا يشدد الرســـول عليه النكير ·· ولا يضيق عليـــه الخناق · ولا يضاعف من احـــراجه عنـــد فشله فى مواجهة جواب الرسول ·· وانما يعود به · ـ برفق ولين الى ذات القضية ·· قضية التوحيد ··ولا يدعه ليهرب منه فى غيابات التاريخ ·· فيفتح بصره على مجالى الطبيعة وما فيها من صور الجلال والجمال مما يؤكـــد أن اللـــه موجـــود ·· وأن الايمـــان به ضرورة ··

(الذى جعل لكم الأرض مهدا ·· الآيات) ·

من أساليب الطغاة :

وعنـــدما يعلن الباطل افلاسه فى ميـــدان البحث والنظر ·· يلجأ الى الحيلة سبيلا الى لم شمله المبعثر أمام النـــاس ·· وها هو ذا يستدعى السحرة ·· مدخلا فى روع الناس أن موسى يريد اجـــلاءهم عن الوطن ·· وناهيك بمثل هذه الدعوة وصلتها بغرائز الناس المتشبثين أســـاسا بمستراد آمالهم ·· وهو : وطنهم ··

(قال أجئتنا لتخـــرجنا من أرضنا بسحـــرك يا موسى) ·

(ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرها) ٠

وعندما يجمع الباطل جنده ٠٠ وفى لحظة الزهو بما يمكن ان يحققه من نصر ٠٠ لا ييأس موسى عليه السلام دوره الاساسى ٠٠ وهو : الدعوة الى الله ٠٠ أنه وان اوجس فى نفسه خيفه ٠٠ لكن ثقته بالنصر أكبر من خوفه ٠ بعد أن أخـذ من ربه العهد انه معه يسمع ويرى ٠٠ ومع هذا ٠٠ فهو يعاود انذار قومه بسوء العاقبة ٠٠ داعيا اياهم الى مراجعة النفس ٠٠ قبل أن يدهمهم العذاب ثم لا ينصرون ٠٠

(قال لهم موسى ويلـكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى) ٠

ونلاحظ فى الآية الكريمة نبرة التهديد عالية ٠٠ كرد فعل لهذا التنادى بالعدوان الذى لا يجدى معه الترغيب ٠٠ وانما يناسبه التهديد بالمصير المروع ٠٠ ليكفوا أيديهم ٠٠ ويعودوا الى الله ٠٠

ومع أنهم مفترون ٠٠ لكنه لا يواجههم بسوء مصير المفترين مباشرة ٠ وانما يظل وفيا لمبـدئه فى الانذار غير المباشر :

(وقد خـاب من افترى) ٠

وليس من أهداف الدعاة الى الله أن يكسبوا الجولة أمام الباطل كأشخاص ·· فليست المسألة انتصارا رياضيا يضيف الى الانسان رصيدا فى دنيا الجوائز والكئوس ! ولكن ·· أهم من ذلك كله أن تحقق الدعوة انتصارا ·· فذلك هو الامل الوحيد ··

كان لهذه الكلمة الحكيمة فعل السحر فى صفوف القوم ·· بما أحدثته من اضطراب وبلبلة ·· انتهيا باعلان السحر ايمانهم :

(لقد أغنت حكمه عن سيف وحساب) ·

واستثمر بها طاقات خير دفينة فى فطرة الناس · قدم لها منه القيادة · فقدمت له منها المتابعة) ·

ونقرأ فى ظلال القرآن :

قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى فتنازعوا أمرهم بينهم ···)

(وهكذا تنزل الكلمة الصادقة الواحدة عن عقيدة ·· كالقذيفة فى معسكر المبطلين وصفوفهم · فتزعزع اعتقادهم فى أنفسهم وفى قدرتهم · وفى ما هم عليه من عقيدة وفكرة · وتحتاج الى مثل هذا التحميس والتشجيع · وموسى وأخوه رجلان اثنان · والسحرة

كثيرون . ووراءهم فرعــون وملكه وجنده وجبروته ومــا له ..

ولكن موسى وهارون كان معهما ربهما الذى يسمع ويـــرى .

ولعل هذا هو الذى يفسر لنا تصرف فرعون الطاغية المتجبر . وموقف السحرة ومن ورائهم فرعون .

فمن هو موسى . ومن هو هارون من أول الأمــر حتى يتحداهما فرعون ويقبل تحديهما .

ويجمع كيده ثم يأتى . ويحشر الســحرة ويجمع الناس ..

ويجلس هو والملأ من قومه ليشهدوا المباراة ؟

وكيف قبل فرعــون أن يجادله موسى ويطــاوله ؟ وموسى فرد من بنى اسرائيل المستبعدين المســتذلين تحت قهــره ؟

انها الهيبة التى القاها الله على موسى وهارون وهو معهما يسمع ويرى .. وهى كذلك التى جعلت جملة واحــدة توقع الارتباك فى صــفوف الســحرة المدربين . فتحوجهم الى التناجى سرا . والى تجسيم

الخطـر . واستـثارة الهمم والدعـوة الى التجمع والترابط والثبات)(١) .

وبعــد :

فان على الداعية أن يكون فى نظر المدعو على أجمل ما تكون صورة الانسان .. فان لم يكن كذلك .. فان قبح الصـورة المـادية من شأنه أن يطمس نور الحق فلا تراه العيون ..

(ان الباطل لا يثبت أمام الحق . مهما ابتدأ الحق ضعيفا . ودلائل الوجود فى تاريخ العالم شاهدة بذلك ولدينا الشواهد الملموسة :

نور الأنبياء فى كل عصر :

فقد كان يبدو فى العالم صغيرا .. الا أن أنصاره لـما تعهدوه بالحكمة والاخـلاص .. كان يكتسح كل باطل فى طريقة .

ويلجـأ أهل البـاطل اذا ارتفع صـوت الحق فى وجوههم الى سـلاح الـكذب والخـدعة . حيث هم لا يستطيعون الثبـات على باطلهم . وقد كشف الله سواد ظلمته بنور الحق والحكمة جاهلين أو متجاهلين أن قوة النور تحلل كل تمويه وتضليل . ولهـذا كانت

(١) فى ظلال القرآن .

الصراحة فى القول من آداب أهل الحق · والختل طريق المبطلين)(١) ·

وقد حلل الله تعالى بنور الكلمة الصادقة ظلمة الباطل أمام السحرة فسجدوا ·· وأعلنوا ايمانهم ··

ولم يكن ذلك فقط دورهم ··

بل ان ايمانهم ولد قويا ·· لم يستسلم لتهديد فرعون الذى كان يمتلك زمامهم بالأمس ··

أنه الايمان الذى بلغ من قوته أن تغلغل فى فى الأعصاب وملك عليهم وجودهم كله ·· فرصدوا حياتهم ·· تلك التى يمكن أن يتحكم فيها الطاغية ·· رصدوها لله تعالى ·· فى سبيل دار هى الحيوان لو كان الطغاة يعلمون ·

(قال آمنتم له قبل أن آذن لكم انه لكبيركم الذى علمكم السحر فلأ قطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم فى جذوع النخل ولتعلمن أينا أشد عذابا وأبقى ·

قالوا لن نؤثرك على ما جاءنا من البينات والذى فطرنا فاقض ما أنت قاض انما تقضى هذه الحياة الدنيا ·

---

(١) الدعوة والدعاة للمرحوم الشيخ على الزنكلونى ·

انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وماأكرهتنا عليه من السحر والله خير وأبقى) ويتحـــول السحرة الى دعاة يأخذون دورهم فى كتيبة الايمان ٠٠ دعما للحق ونشرا لمبـــادئه :

(انه من يأت ربه مجرما فان له جهنم لا يموت فيها ولا يحيى ومن يأته مؤمنا قد عمل الصالحات فأولئك لهم الدرجات العلى جنات عدن تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء من تزكى) .

وتلمح فى خطاب السحرة بركة من بركات موسى عليه الســـلام ٠٠ وقبسا من نور حـــكمته ٠٠ عندما يواجهون الطاغية بالحكمة كما تعلموها من موسى ٠٠ فلا يدفعون فرعون بالاجرام ـ وان كان كذلك ـ فلعل لحظـــة الهـــداية ـ قد حانت ٠٠ فيمضى مثلهم على الطريق ٠٠ فليستمسك الدعاة بالأمل فى نصر الله وان لم تلح فى الأفق بادرة عزاء ٠٠ فمقلب القلوب والأبصار ٠٠ قادر على أن يغير الموقف لحساب الحق فى لحظة واحدة ٠

الدعـــــاة :

وعقـدة الحـكام(١) :

ومن تمام الفائدة أن هذا نختم هذاا البحث الموجز بكلمة طيبة للسيد وحيد الدين خان(١) يتحدث فيها عن الامكانات الجديدة التى تمكن للدعاة فى الأرض والتى فتحت فرصا جديدة أمامهم للدعوة ·· بلا صدام مع الحكام ·· ليتخلوا عن هذه العقدة التى تفرض عليهم أحيانا حربا فى غير ميدان !

يقول العلامة وحيد الدين **خان :**

(ان شيئين قد ظهرا فى وقت واحـد فى العصـر الحديث وهما) :

حرية الرأى · وتطور وسائل الاعلام والاتصال ·

ان حرية الرأى قد أصبحت حقا أساسيا من حقوق الانسان فى سائر العالم خارج الكتلة الشيوعية ··

···· والشىء الآخر : هو المطبعة التى مكنت نشر فكرة ما فى المجتمعات البشرية بسرعة كبيرة :

لقد ولد السيد المسيح فى قرية الناصرة الفلسطي قبـل ألفى سنة ·· وكان انســانا عظيما ورســولا عظيما ·

---

(١) فى رسالته : المسلمون بين المـاضى والحاضر والمستقبل ·

ولكن صوته لم يصل الا بصعوبة بالغة خارج نطاقه الاقليمى ٠

أما اليوم : فيستطيع أى انسان ـ باستخدام وسائل الاعلام الحديثة ـ أن يخاطب العالم كله فى وقت واحد ٠

ان هذه الامكانات قد فتحت لنا فرصا وأبوابا جديدة ٠

ويمكن القيام بالدعوة ونشر الاسلام على نطاق لم يسبق له مثيل فى التاريخ ٠ بشرط عدم الاصطدام سياسيا مع الحكام ٠

ان الوسائل الحديثة قد مكنت الدعاة من أن يخاطبوا العالم كله فى وقت واحد ٠٠ فتصل رسالة الله الى كل أرجاء العالم ٠٠ فلا تبقى أذن لم تسمع بها ٠ ولا عين لم تشاهدها ٠

ان الحركات الحديثة التى قامت على هتاف ثورة الاسلام السياسية مهما بلغ اخلاص أصحابها ٠٠ قد شوشت وأفسدت الأمر :

فالثورة السياسية لا تقوم الا على الأرضية الفكرية الراسخة ٠

ان الأرضية الفكرية لصالح الاسلام قد توفرت من ناحية الامكان منذ مدة ٠

ولم يكن على رجال الحركات الاسلامية الحديثة سوى أن يتيحوا لتلك الامكانات العمل والنشاط فى مجتمعاتهم ٠

ولكنهم أقاموا العوائق أمام الاسلام بفتحهم جبهات سياسية غير ضرورية ٠

وليس من باب المبالغة أن **أقول** :

ان امكانات الاسلام السياسية كانت ستكون أكثر قوة اليوم لو لم تظهر الحركات الاسلامية السياسية فى القرن العشرين ٠

ولنفهم هذا منمثال حركة تحرير الهند :

ان شئون السياسة والحكومة كانت تعتبر حكرا على « القصر الملكى » فى العصور القديمة ٠ فكان كل من يستولي على القصر بفضل قوته وبراعته ٠٠ هو الحاكم القانونى ٠ وفى مثل هذه الأحوال دخل الانجليز الى الهند ٠ متسلحين بالامكانات التى أفرزتها الثورة الصناعية ٠

ومثلما كان « باير » المغولى قد استولى على شمال الهند بمدفعيته المتقدمة سنة ١٥٤٦م ٠٠ أكمل الانجليز سيطرتهم على الهند عام ١٨٥٧ متسلحين بالقوة الميكانيكية ٠

ولكن العلم الحديث الذى مكن الانجليز من القوة المادية أفرز كذلك علوما سياسية واجتماعية جديدة · أخذت تغير الأرضية الفكرية القديمة · فهذه العلوم انتجت فكرة « الديمقراطية » و « الجمهورية » التى قضت على فكرة الحكام السلاطين · وأدت الى ظهور فكرة « القومية » التى قضت على حق شعب ما فى السيطرة على شعب آخر ·

وهكذا ·· فقد حكام الهند الأوربيون فى القرن العشرين - بسبب أفكار نبتت فى بلادهم نفسها - فقدوا الأساس الذى مهد لهم احتلال أراضى الشعوب الأخرى فى القرون السابقة ·

ولكن الذين انبروا فى النصف الأول من القرن العشرين لتحرير الهند سياسيا أخفقوا فى استخدام هذه الأرضية الفكرية ·· وضحى آلاف مؤلاء بحياتهم · ولكنهم فشلوا كلهم فى تحرير الهند ·
والسبب فى ذلك أنهم كانوا يتحدون الانجليز فى الميدان العسكرى حيث كان عدوهم لا يزال متفوقا عليهم بصورة حاسمة .

والمهاتما غاندى (١٨٦٩ - ١٩٤٨) هو أول شخص درس الأوضاع بعمق وتوصل الى فهم السر فى النتائج العكسية التى كانت أساليبنا تؤدينا اليها ·

لقد أظهرت له دراسته للغرب أن التاريخ السياسى العالمى قد دخل عصرا جديدا · لقد فهم أن الانليز قد فقدوا الأرضية الفكرية التى أتاحت لهم السيطرة على الهند · ولكن أسلوبنا القائم على العنف يحول دون استغلال الأرضية الفكرية الجديدة ·· وكان اعلان غاندى شعار « اللا عنف » بدلا من « العنف » كان هذا الاعلان أخطر على الانجليز من كل الحركات المسلحة التى كانت تعمل فى الهند ··

لقد كانت لديهم مبررات وحجج للقضاء على العنف بالعنف ·· ولكنهم كانوا يجهلون مواجهة طوفان « اللا عنف » ·

ويقال أن حاكما انجليزيا لاحدى المديريات الهندية أبرق للحكومة عندما واجه «اللا عنف» حينذاك يقول :

(يرجى ابراق التعليمات لكيفية قتل نمر «اللا عنف») !! ·

وحين انتهى العنف والصدام المسلح ·بدأت العوامل الفكرية تقوم بعملها وأخذت نظريات الجمهورية والقومية تسحب البساط من تحت أقدام الانجليز ·· الى أن قرروا الرحيل عن البلاد ·

وهكذا كسبنا باللاعنف الحرب التى كنا قد خسرناها بالعنف !

والاسلام أيضا يواجه وضعا مماثلا :

ان الحرب السياسية تدور على قدم وساق فى شتى بقاع العالم لأجل النهضة الاسلامية ٠ الأمر الذى أدى الى وقوف الاسلام ندا للحكام السياسيين ٠

وبسبب هـذا الاصطدام بين الاسلام والحكام لا تنشط الامكانات الفكرية الى أفرزها العصر لصالح الاسلام ٠

اننا لو أبعدنا الاسلام عن موقف الند السياسى ٠ فسنفاجأ بزوال كل العقبات الزائفة الاصطناعية ٠

ولو بدأت القوى المسلمة تخدم الاسلام بالجوانب والاساليب الايجابية لنشطت الامكانات العصرية توفر الجو لصالح الاسلام ـ وليعرف الناس الذين يستغربون هذا الأمر عما قريب أن العودة من ميدان المواجهة ستكون « فتحا مبينا » تماما كما كانت بالأمس فى صدر الاسلام)(١) ٠

وتلك تجربة رجل عرك الحياة ٠٠ ومارس الدعوة قولا وعملا ٠٠ يقدم الينا خلاصتها فى كلمات يودعها اخلاصه لقومه ٠ وولاءه لدينه ٠ وأمله فى أن يظهره الله على الدين كله ٠٠

---

(١) يشير الى هدنة الحديبية ٠

واذ يستبعد العنف سبيلا الى نشر الدعوة فى مواجهة المستعمرين ·· فان العنف يكون أبعد وأبعد ونحن تخاطب الحكام من أبناء ديننا ·· لقد حدثنى أستاذنا الشيخ محمد الغزالى عن أهمية الدعـوة اليوم عن طريق التربية ·· صياغة للطفل المسلم فى البيت ·· وترسيخـا للتعاون على البر والتقـوى بين صفوف الجماعة ·· تعاونا يؤتى أكله فى كل نواحى الاصلاح الاجتماعى ·· رخـاء ·· وأمنـا ·· ان الانفعـال الساخن على صفحات مجلة تندد بالحاكم ·· يستعدى الحاكم عليها ·· بالاضافة الى سلبيته وعدم جدواه فى تحقيق تقدم يذكر على طريق الاصلاح ·

(ان الحسـرة والتألم وتصعيد الزفـرات ليست سوى وسيلة سلبية لا تجرح قوى الباطل ·

بل تخـدشها ··

وهى لا بأس بها ·

لكنها تنقلب الى أمر بالغ الخطورة : اذا لم يعقبها عمل ايجابى مثمر ·

اذ تكون وسيلة لامتصاص النقمة على الأوضاع الفاسدة · ومن ثم · الركـون اليها · وعلى أحسن الفروض · استمرار هذه النقمة · ولكن بشكل جامد

لا حياة فيه · يؤدى الى شلل الحركة · وليس أفضل لقوى الباطل من هذا الوضع(١) ·

ان الصياح العالى ما هو الا احتجاج ·· أعنى مجرد الاعلان عن شعور المرارة ازاء قضية ما ·· وذلك وحـــده لا يكفى ··

لأنه وقفة على الاطلال ·· تبكى ·· أو تتباكى ·· وذلك جهد ضائع مالم يكن للمتباكين دور حقيقى فى ابراز قيم الاسلام وأسسه التى أعدها ليقوم عليها البناء الاجتماعى ·

يقول المرحوم الشيخ على الزنكلونى :

(ان حياة الاسلام اليوم على وشك أن يأتى الزمان على ما بقى لها من آثار وأطلال · والناس يتساءلون عن السبب) :

وأهل الدين واجمون ·

ومن حين لآخر يجتمعون فيحتجون · أو يحملون الناس على الاحتجاج ·

على أن الاحتجاج ليس دفاعا ·· وانما هو مجرد اظهار شعور بالشىء المحتج عليه وحمل الناس على

---

(١) الدعوة والدعاة ٢٦٥ : ٢٦٦ ·

اظهار الشعور دون أن يندفعوا اليه بأنفسهم كالتيار الجارف دليل على ضعف الشعور ·

وكل ضعيف فى الوجود أثره ضعيف ·

وقد جهل القوم أو تجاهلوا : أن الدفاع عن أطلال الدين البالية اذا لم يتصل بأصل متين يعتمد على العقل · وعلى الحياة الفاضلة فى نظر العقل ·· مع الاجتهاد فى اظهار الاسس القوية التى كانت لهذه الآثار والاطلال بحيث يتلاقى تجديد البناء المحكم وسرعة السير فيه مع الدفاع عن تلك الآثار ·· ان لم يحصل هذا ·· فلا قيمة للدفاع مهما قوى · فضلا عن ضعفه ·

على أنه محال أن يقوى حتى تظهر شدة ارتباطه بالقواعد المحكمة · والأصول التى يطمئن اليها العقل فى أنها عنصر لابد منه فى بناء الوجود وسعادته وجماله ···

ان الدينيين عامل كبير فى تقويض بناء الاسلام :

لأن الحياة المادية بقوتها الحقيقية والمزيفة تهاجم الاسلام فى كل يوم ·· وللقوة فعلها وأثرها ·· والوجود كله خاضع للقوة ·

فالعقول بفطرتها مستعدة للخضوع أمام قوة الحجة وبريق البيان • كذلك الماديات فى النفوس البشرية خاضعة لما حولها من القوة الدافعة للأهواء والشهوات •

واذا كان جو الانسان العقلى والمادى مزدحما بجيوش الفساد وأسلحته وذخائره وليس للخير أقل جيش وأضعف عدة تقف فى وجه جيوش الشر الجرارة •• فعلى أى مستند من العقل تقل الشرور •• وتنعش روح الاسلام ؟

وبأى حجة تختصم مع الخارج على الاسلام من أبناء المسلمين وهو لا يعرف الاسلام وهو لم يستظهر جماله وقوته العقلية • والمادية فى أهله بجانب الشرور المنتشرة ؟

ان التكليف بذلك تكليف بما لا يعقل •

فليبرز الاسلام الحقيقى أولا : فى جماله وقوته العقلية والمادية •

وهنا تتسرب جيوش الشر الى مراقدها فى بطن الأرض أو تنهزم شر انهزام •

وان تعجب من مسلمين وحماة دينهم من شىء فليكن عجبك أشد من أنهم يؤمنون ببعض الدين ويكفرون ببعض • كما فعل اليهود من قبلهم :

فالدين كل ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم · وليس بعضه أولى بالدعوة له والتمسك به من بعض ·

فليست الصلاة والصوم والعبادة اللسانية أولى باسم الدين مما يمس المال ويدفعه الى الأعمال الشاقة · ويوجب ارتياض النفس على المروءة وعلو المهمة · والنهوض فى سبيل الرقى الفكرى والحياه القوية · بل قوام الاسلام فى الحقيقة هو الكمال الانسانى الذى يفيض بقوة العقل والمادة معا ·

وما العبادات وأشباهها مما لا يكلف المسلم كبير عناء ·· الا مظاهر بناء ذلك الجمال ·

العلماء ··أيضا !

ولم يسلم العلماء من الهجوم ·· والقسوة فى النقد الجارح !

وقد شاهدت ذلك الشاب الذى يضرب بقبضته القوية منبر المسجد قائلا :

ياطول ·· ما قيل فوقه من كلام !! وأين نتيجته ؟ !! كما سبق أن قلنا · انه ·· يشجب - !! - كل جهود العلماء ·· لأنهم « حكوميون » ولا أمل فيهم على طريق الاصلاح هكذا لمجرد أنهم موظفون يضرب بجهادهم عرض الحائط ! ولا ننسى الحملة الضارية التى تشن على عالم لأنه رأى رأيا قد يكون خاطئا ·· لكن الهجوم

المضاد - ! - قد يفجر فى الرجل دوافع العناد فلا يعود الى الحق كيدا وعنادا !

لقد كان العلماء فى الماضى يأمرون الحكام ·· ويعظونهم ·· ويدفعونهم عبر الطريق المستقيم ··

بقدر ما شددوا النكير على المنحرفين منهم ·· وهذا سر احترامهم لدى الجمهور ·· ولما تقدمت بالناس الحياة ·· كسدت سوق العلماء ·· وانفض عنهم الحكام ·· ولم يقفوا بهم فى مراكزهم العالية ·· والتى يرشحهم لها وضعهم الدينى ·· فخف وزنهم لدى الجمهور ·· واستهان بهم العامة ·· وانفضوا من حولهم ليتلقفهم أنصاف المتعلمين ·· والمتدينين ·· فكانت الخسارة فادحة ·

ونحن مطالبون باحترام العلماء فى عصر يحسون فيه بالغربة فى أوطانهم ·· والا فان القذيفة الآتية اليهم من أحفادهم ·· والعاملين معهم فى حقل الدعوة ·· توسع شقة الخلاف ·

مؤمــــــن
آل فرعــــــون

يقول الحق سبحانهو تعالى :

(ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين ـ الى فرعــون وهامان وقارون فقالوا ساحــر كذاب ـ فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معهواستحيوا نساءهموماكيد الكافرينالا فىضلال ـ وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد ـ وقال موسى انى عــذت بربى وربــكم من كل متــكبر لا يؤمن بيوم الحساب ـ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينان من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعــدكم ان الله لا يهــدى من هو مسرف كذاب ـ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا قال فرعــون ما أريكم الا ما أرى وما أهديكم الا سبيل الرشاد ـ وقال الذى آمن ياقوم انى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ـ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم وما الله يريد ظلما للعباد ـ وياقوم انى أخــاف عليكم يوم التناد ـ يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم ومن يضلل

الله فما لهمن هاد - ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب - الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار - وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب -أسباب - السماوات فأطلع الى اله موسى وانى لأظنه كاذبا وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون الا فى تباب - وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد - ياقوم انما هذ الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هى دار القرار - من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب - ويا قوم مالى أدعوكم الى النجاة وتدعوننى الى النار - تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم وأنا أدعوكم الى العزيز الغفار - لا جرم أنما تدعوننى اليه ليس له دعوة فى الدنيا ولا فى الآخرة وان مردها الى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار - فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمرى الى الله ان الله بصير بالعباد - فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب)(١) ٠

---

(١) سورة غافر ٢٣ : ٤٥ ٠

ســورة غافر :

(هذه السورة تعالج قضية الحق والباطل · قضية الايمان والكفر ·· قضية الدعوة أو التكذيب) ·

وأخيرا قضية العلو فى الأرض والتجبر بغير الحق · وبأس الله الذى يأخذ العالين المتجبرين ·

وفى ثنايا هذه القضية تلم السورة بموقف المؤمنين المهتــدين الطائعين · ونصر الله اياهم · واستغفار الملائكة لهم · واستجابة الله لدعائهم · وما ينتظرهم فى الآخرة من نعيم(٢) ·

وبين هؤلاء المؤمنين يبرز مؤمن آل فرعون ·· وهو فرد واحد ·· ولكنه على حد تعبير بعض الكاتبين :

قد ترى فى حماسة فرد واحد ما يعديك ·· ويستفزك للخير ·· بما يستجيش فى صدرك من طاقات تفجرها حكمته وسمته ··

ذلك الفرد الواحد ·· الذى نفتقد اليوم قوته ·· وحــكمته معــا ·· على طــريق دعوة لم تنتشر يوما الا بالحكمة والموعظة الحسنة ··

ان دعــوتنــا :

---

(٢) فى ظلال القرآن ·

موعظة تلمس القلب فيرق لها .

وبشارة بثواب يتقدم بالقلب خطوة أخرى .. ليعطى الموعظة أقطاره كلها ..

وارشاد يأخذ بيد الضال الى حيث النور والقرار .. وتذكير بنعم الله على نحو يثير الحياء فى النفس فتكف الجوارح عن العصيان ..

ثم هى تخويف .. فى النهاية .. يضبط الخطو المندفع حتى لا يضل .. هذه المعانى التى هى خلاصة منهج المؤمن والتى نذكر بها حين نعرض لقصة مؤمن آل فرعون . الذى كان ثمرة من ثمار الكلمة الطيبة على لسان موسى عليه السلام .

منشأ العدوان :

قد يكون الانسان بطبعه متكبرا ..

ثم هو مع ذلك لا يؤمن بيوم الحساب ..

فاذا اجتمعت هاتان الخستان - بالتعبير المنطقى - فانه يمضى فى ايذائه الخلق بلا حدود .. وبلا رادع من ضمير ولا وازع من دين .

فما دام يظن نفسه فوق الجميع ..

وما دام لا يتوقع حسابا أو عقابا على خطاياه .. فان يده سوف تظل مبسوطة بالأذى كلما شاء له هواه ..

ولن يتورع عن تلفيق التهم للأبرياء من الناس كوسيلة يحاول بها اخفاء ضعفه فى مواجهة الحق الذى يحس فى قرارة نفسه أنه أقوى منه ··

وهكذا كان فرعون الطاغية من حيث نشأة الطغيان عنده ·· وفى موقفه من موسى عليه السلام ودعوته ·

تهم مغـــرضة :

مع وضوح معجزات موسى عليه السلام فقد اتهموه بالسحر والكذب :

وتهمة السحـــر يراد بها التشويش على منطقـه الواضح وموقفه الفوى · والا ·· فان المعجزات التى جاء بها تجعله عليه الســلام أبعد ما يكون عن هــذه التهمة النكراء ·· ومع هــذا فقد رموه بها شاهدين على أنفسهم بسوء النوايا ··

وحين يرمونه عليه السلام بالـكذب وهو منه براء كذلك ·· فانما يتم ذلك بدافع من احساسهم بصدقه ·· بيـد أنهم يحـالون صــرف الناس عن تصـــديقه لأن معنى هذا التصـــديق أن يقضى عليهم · وتنتهى دولتهم ·

ولو أنهم رضوا عن أنفسهم بهذا الاتهام المغرض ·· لو أنهم اقتنعوا بجدوى هــذا التشويش على الحق · لكفاهم أن يقولوا للناس هذا ··

ولـكنهم ـ احساسا بضعفهم وتفـاهة مقالتهم ـ يلجأون الى القوة الغاشمة ردا على الحق الأعزل ..

وهو اجراء يلجأ اليه فرعون لاسكات فزعه النفسى بهذه الضجة المفتعلة .

(وقال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الأرض الفساد) .

وما كان جـواب موسى عليـه السلام الا اعلان توكله على ربه سبحانه وتعالى .. فهو القادر وحده على حماية عباده المؤمنين .. فى نفس الوقت الذى يشيـر الى سـر هـذه النزعـة العـدوانية والتى تتلخص فى :

★ داء الـكبر .

★ وعدم الايمان بيوم الحساب .

(وقال موسى انى عذت بربى وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب) .

لقد كان فرعون يضمر خوفه فى قرارة نفسه بهذه الحركة المسرحية . وكأنما كان يقدر على قتله لـكن قومه يمنعونه .. وهو يقول لهم .

(ذرونى أقتل موسى ...) .

ثم هو يعلن استهتـاره وجحـوده فيمـا حـكى القرآن عنه ٠

(وليدع ربه ٠٠٠) ليفت بالاستهتار فى عضد موسى ٠

وانه ليحاول حبك خطته اذ يثير عليه حفيظة الناس بايهـام أن موسى يريد تغيير مألوف حيـاتهم بهـذا الدين ٠٠ ويبذر بما جاء به بذور الفساد فى الأرض ٠

وعلى الجانب الآخـر كان موسى عليه السـلام يستعيذ بربه سبحانه ٠٠ ومعنى ذلك أن الرسول يخاف على النحو الذى تفرضه الطبيعة البشرية ٠٠ ولا يقدح ذلك فى رسالته ٠٠

المهم ٠٠ أن الخوف لم يسقط به فى هوة اليأس ٠٠ وانما ألجأه الى الله سبحانه ليستمد منه العـون فى معركة غير متكافئة ٠٠

وتلك كانت سنة نبينا صلى الله عليه وسلم :

(عن أبى موسى رضى الله عنه أن رسول

الله صلى اللـه عليـه وسـلم كان اذا خاف قوما قال) :

اللهم انا نعـوذ بك من شـرورهم ٠ وندرأ بك فى نحورهم(١) ٠

---

(١) سنن أبى داود ٠ باب ما يقول اذا خاف قوما ٠

وقد سمعت من داعية ثقة يصوغ واحدة من تجاربه فيما روى :

أن بعض الناس يقول الكلمة لا تخدش ذنبا .. يعرض بها رقبته للقطع .. مجرد حماس قد يكون مفتعلا .. يحمل بعض الناس على ركوب الشطط .. وبدل أن يقدروا قواهم في مواجهة قوى البغى .. يندفعون كالفراش يتهافت فى لهب النار .. ولكن السنة التى يزعم الاستمساك بها تؤكد غير ذلك تماما :

(أخرج البزار عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

سمعت الحجاج يخطب . فذكر كلاما أنكرته .

فأردت أن أغير . فذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه ..

قال : قلت يارسول الله كيف يذل نفسه ؟

قال : يتعرض من البلاء لما لا يطيق(١)

---

(١) راجع تفسيرا ابن كثير .

اقتراح القتل واتجاهات الناصحين :

عندما اقتـرح فرعـون قتـل موسى كانت آراء الناصحين من الحاشية على النحـو الآتى كما أشار المفسـرون :

١ ـ قال جماعة :

لا تقتله .. فهو أضعف من ذلك .. بالاضافة الى أن قتله سيجعل منه بطـلا .. ويثبت فى نفس الوقت عجزك عن مجادلته .

٢ ـ فيهم من كانوا يمنعونه من قتله لأنهم مؤمنون سرا . وقد دفعهم الحرص عليه الى كف يد الطاغية عنه ليبقى لهم .

٣ ـ ربما وجد بين القوم فئة ماكرة تعمل لحساب مصلحتها .. أرادوا أن يشغلوا فرعون بمعركة وهمية مع موسى ما بقى حيـا .. ليخلو لهم الجـو .. ثم لا يبقى لفرعون وقت يتفرغ فيه لحسابهم ..

وهكذا تفعل حاشية السوء فى كل زمان وما كان !

وباستعراض هذه الاتجاهات ازاء هذا الاقتراح يتبين أن قوله : ذرونى .. يشعر بأن هناك معارضـة قوية لقتله .

لكنها مختلفة النوايا ..

وأيا ما كان الأمر :

فقد ربك موسى عليه السلام فرعون ·· كما ربك السحرة من قبل ·· بل أحــدث بين صفوف الصفوة الحاكمة هزة باعدت بين آرائهم ·· وفرقت جموعهم فعجزوا عن اتخــاذ قرار حاسم بشأن موسى عليــه السلام ·· بل أنه عليه السلام ربك الأسرة الحاكمة حين آيده الله منها بواحد من بينها ·· ليقف الى جانبه عليه السلام ·· فكان ذلك من الله نصيرا مبينا ·· ولن يهز الشجرة الا فرع منها ··

وذلك مؤمن آل فرعون ·

فمن هو ذلك الرجل ؟

بطاقة معــرفة :

المشهور أن هذا الرجل ـ مؤمن آل فرعون ـ كان قبطيا من آل فرعون · أوكان من البلاط الامبراطورى ·

وقال السدى : كان ابن عم فرعون · وزاد بعضهم:

فقال : كان صاحب سره ومشورته(١) ·

وهكذا تجىء القذيفة من منطقة الأمان ·· لتكون موجهة !

وسواء أكان قــريبة ·· أو مستشاره · فان ذلك

---

(١) راجع تفسير ابن كثير ·

لا يخفى حقيقة ما ينطوى عليه الموقف من السخرية التى يدبرها القدر الأعلى عندما ينتصر للدعاة الضعاف ممن يدلون عليهم بالعدة والعدد !

وكما سخر الله تعالى من فرعون بتربية موسى بالذات فى قصره .. يسخر منه اليوم اذ يخرج من ذريته أو حاشيته من يتصدى له ويحبط كيده ..

ولقد (انفعل فرعون بكلامه واستمعه . وكف عن قتل موسى عليه السلام)(٢) وتجدر الاشارة هنا الى ما للكلمة من فعل السحر أحيانا .. وألفت نظر ذلك الفتى الغيور والذى قاطع زميلا لى كان يخطب فى الناس فقال له :

لم يعد هناك فائدة للخطابة .. ان الشعب لا يصلحه الا العصا !

وألفت نظر أمثاله الى طيبة هذا الشعب .. عندما تستمد نسيجها من الحق الأعلى : انها تفعل الأعاجيب وبها ينال الدعاة أضعاف ما ينالونه بالعصا .. وذلك ما يتكفل ببيانه نهج هذا المؤمن فى دعوته التى آتت أكلها .. وما تزال ..

---

(٢) ابن كثير .. آمنت امرأة فرعون أيضا كما قال تعالى « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون » .

الدعوة فى اطار الحكمة :

رغم أن الايمان هنـا كان مكتوما ·· لـكنه كان ايجـابيا :

له دوره الفعال فى واقع الحياة كالبذرة تتوارى فى الأعماق لكنها فوق السطح تبدو خضرة وثمرا ··

ونتساءل : كيف استطاع هذا الفرد الواحـد أن يسمع صـوته من حـوله والدولة كلها فى الجـانب الآخــر ؟ !

انها الحكمة الالهية توحى بها الآيات الكريمة وهى تروى قصة هـذا الفتى المؤمن لتكون للدعاة اليـوم مثلا يحتذى ··

يقول الحق سبحانه :

(وقال رجـل مؤمن من آل فرعـون يكتم ايمـانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صاقا يصبكم بعض الذى يعـدكم ان الله لا يهـدى من هو مسرف كذاب ·

(يا قوم لـكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا) ·

يقول ابن كثير فى تفسيره ·

(كيف تقتلون رجلا لكونه يقول : « ربى الله » وقد أقام لكم البرهان على صدق ما جاءكم به من الحق ؟

ثم تنزل معهم فى المخاطبة فقال :

« وان يك كاذبا فعليه كذبه وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » ٠

يعنى : اذا لم يظهر لكم صحة ما جاءكم به ٠ فمن العقل والرأى التام والحزم أن تتركوه ونفسه ٠ فلا تؤذوه ٠ فان يك كاذبا فان الله سبحانه سيجازيه على كذبه بالعقوبة فى الدنيا والآخرة ٠

وان يك صادقا وقد آذيتموه يصبكم بعض الذى يعدكم ٠

فانه يتوعدكم ان خالفتموه بعذاب فى الدنيا والأخرة ٠ فمن الجائز عندكم أن يكون صادقا ٠ فينبغى على هذا ألا تتعرضوا له ٠ بل اتركوه وقومه يدعوهم ويتبعونه ٠٠٠٠ وقوله « ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » أى : لو كان هذا الذى يزعم أن الله أرسله اليكم كاذبا ٠ كما تزعمون لكان أمره بينا ٠ يظهر لكل أحد فى أقواله ٠ وأفعاله كانت تكون فى غاية الاختلاف والاضطراب ٠

وهذا نرى أمره سديدا ومنهجه مستقيما ٠

ولو كان من المسرفين الكذابين لما هداه الله . وأرشده الى ما ترون من انتظام أمره وفعله .

ثم قال المؤمن محذرا قومه زوال نعمة الله عنهم وحلول نقمة الله بهم « يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض » .

أى : قد أنعم الله عليكم بهذا الملك والظهور فى الأرض بالكلمة النافذة والجاه العريض . فراعوا هذه النعمة بشكر الله . وتصديق رسوله صلى الله عليه وسلم . واحذروا نقمة الله ان كذبتم برسوله .

« فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا » .

أى : لاتغنى عنكم هذه الجنود . وهذه العساكر . ولا ترد عنا شيئا من بأس الله ان أرادنا بسوء(١) .

فقه الدعوة فى منهج المؤمن :

١ - استعمل المؤمن هنا الترغيب والترهيب معا :

(أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ..) .

(« يصبكم بعض الذى يعدكم » « فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا ») فليس من الحكمة الوصول بالترغيب الى حد الابتذال .. ولا الوصول بالترهيب

---

(١) تفسير سورة غافر .

الى حد القسوة والضغط ·· والتنفير ·· وانما هى المراوحة والتكامل فى محاولة الامساك بزمام النفس الشـــرود ·

٢ ـ شدة الانصاف فى عرض المؤمن :

(أ) قدم من شقى الترديد كونه كاذبا ·

(ب) قال : « يصبكم بعض ·· » مع أنه سيصيبهم الكل · وذلك حتى لا يتهم بمحاباة أو ميل يعرقل سيره ·

(جـ) قوله : « من ينصرنا من بأس الله » نظم نفسه فى سلكهم · وهو ليس معهم قطعا · وذلك تطييبا لهم · واشعارا بأنه مخلص فى نصحهم ·

٣ ـ هنـــاك من وراء السطور اشـــارات لأولى الألباب من قوم فرعون :

(أ) مثل قوله « أتقتلون رجـــلا أن يقول ربى الله وقدجاءكم بالبينات من ربكم » كأنه يقول لهم :

انكم تجعلون المـــانع مقتضيا !

أى تجعلون ما هو سبب لحفظ الحيـــاة من الدين العاصم ·· ذريعـــة للقتل ·· وذلك أمر لا يرضى به عاقل يحترم عقله ·

(ب) عندما قال « ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » كان يحرك العقول النائمة لتصحو حتى تستبين

حقائق الأشياء ٠٠ وترى شواهد هذا السرف والكذب فى حياة فرعون ٠٠ كما سيشير اليه فى الآيات من بعد ٠

(جـ) عندما يركز على بطلان الجدال بغير حجة تجذب ولا تقاوم ٠٠ يشير الى رغبته الملحة فى تخلى قومه عن ذلك العيب بالتوجه الى القلوب بغية صقلها ٠ فرارا من طبع الله عليها ٠ قبل أن تفقد حاسة التمييز بين الحق والباطل ٠

جواب فرعون :

(قال فرعون) لقومه : ردا على ما أشار به هذا الرجل الصالح البار الراشد الذى كان أحق بالملك من فرعون :

(ما أريكم الا ما أرى) أى :

ما أقول لكم ٠ وأشير عليكم الا ما آراه لنفسى ٠
وقد كذب فرعون :

فانه كان يتحقق صدق موسى فيما جاء به من الرسالة « قال : لقد علمت ما أنزل هؤلاء الا رب السموات والأرض بصائر »(١) ٠

---

(١) الاسراء ١٠٢ ٠

قال الله تعالى :
« وجحـــدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا »(٢) ٠

فقوله « ما أريكم الا ما أرى » كذب فيه وافترى ٠ وخان الله ورسوله ورعيته ٠ فغشهم وما نصحهم ٠
وكذا قوله :

« وما أهديكم الا سبيل الرشاد » ٠

أى : وما أدعوكم الا الى طريق الحق والصـــدق والرشد ٠
وقد كذب أيضا فى ذلك ٠ وان كان قومه قد أطاعوه واتبعوه ٠

قال تعـــالى :
« فاتبعوا أمـــر فرعون وما أمر فرعـــون برشيد »(١) ٠

« وقال تعـــالى : « وأضـــل فرعون قومه وما هدى »(٢،٣) ٠

وهذا التهافت البادى فى رد فرعون ٠٠ يتضاءل

---

(٢) النمل ١٤ ٠
(١) هود ٩٧ ٠
(٢) طه ٧٩ ٠
(٣) ابن كثير ٠

أمام كلمة الحق على لسان المؤمن الحق ٠٠ وها هو ذا الباطل يفرغ آخر سهم فى جعبته ٠٠ معلنا افلاسه ٠٠ ولنتعلم نحن أيضا :

(وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الأسباب ٠٠) وهكذا يفعل أعداء الحق دائما :

لقد حاول فرعون من وراء قتل أبناء بنى اسرائيل الوقيعة بين الشعب والدعاة المخلصين ٠

ليتشاءم الناس من رسول الله موسى ومن دعوته ولهذا قالوا :

(أو ذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا) ٠

ثم هو اليوم بأمره هامان ليبنى الصرح يتقدم خطوات أخرى على طريق الحرب المخادعة : انه يستر حياءه بما يشبه أن يكون رقصة الطائر الذبيح ٠٠ محاولا ايهام الشعب القضاء على موسى وأنه يعمل شيئا لتحقيق ذلك ٠٠

ولكن موقفه عند النظرة الفاحصة يشير الى أن محاولته :

١ ـ تمويه ومحاورة كى لا يواجه الحق جهرة ٠
٢ ـ استهتار وسخرية ٠
٣ ـ تظاهر بالانصاف خداعا للجماهير ٠
٤ ـ خطة للتراجع أمام مطارق المنطق المؤمن فى

حديث الرجل المؤمن(٤) .

التاريخ يعيد نفسه :

(عن عمرو بن العاص أنه سئل :

ما أشد ما رأيت قريشا بلغوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟

قال : مر بهم ذات يوم فقالوا له :

أنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ؟

فقال : « أنا ذاك » .

فقاموا اليه . فأخذوا **بمجامع ثيابه** .

فرأيت أبا بكر محتضنة من ورائه . وهو يصيح بأعلى صوته . وان عينيه ليسيلان .. وهو يقول :

ياقوم « أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم » حتى فرغ من الآية كلها ...

.... وهكذا أخبر الله عن موسى عليه السلام أنه طلب من قومه الموادعة فى قوله : « ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم . أن أدوا الى عباد الله انى لكم رسول أمين وألا تعلوا على الله انى

---

(٤) راجع فى ظلال القران .

آتيـكم بسلطان مبين · وانى عـذت بربى وربكم أن ترجمون · وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون ·

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لقريش أن يتركوه يدعـو الى الله عبـاد الله · ولا يمسوه بسوء · وأن يصلوا ما بينه وبينهم من القرابة فى ترك أذيته · قال الله تعالى :

« قل لا أسألـكم عليه أجـرا الا المودة فى القربى »» أى :

الا أن لا تؤذونى فيما بينى وبينكم من القـرابة · فلا تؤذونى وتتركوا بينى وبين الناس · وعلى هـذا وقعت الهدنة يوم الحديبية · وكان فتحا مبينا(١) ·

وهكذا فعل بالدعاة عبر التاريخ ··

وهكذا أيضـا كانت الحـكمة أسلوبهم فى تناول الأمـور تنـاولا يمكنهم من الاستمرار فى الدعـوة بلا عوائق ·· واذا كنا نشـدد النكير على ما يفعـل بالدعاة عبر التاريخ ·· فيجب أن ينصب كفل من هذا النكير على دعـاة يزايلون الحـكمة ·· ويركـبون العنف فكانوا كالمنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى ·

ونحن محتاجون الى صياغة مثل هذه القدوة فى

---

(١) ابن كثير ·

مجال الدعوة ليحيى الله بها قلوبا عليها أقفالها ٠٠ ويكفى الدعوة شرفا أن تشكل بالحكمة مثل هذا النموذج ٠٠ يراه الناس ٠٠ وعلى منواله ينسجون :

يقول الأستاذ محمد الراشد :

(الحقيقة أنه ـ وان افتقد الدعاة فى هذا القرن صورة حكم اسلامى يصلح مثلا لتطبيق الاسلام ـ الا أن هذا المثل يمكن أن يتجلى فى بضع أشخاص من الدعاة ٠ تتضح فيهم معانى الاسلام ٠ ويكتسبون من هيبته ٠ ويبلغون الذروة فى الايمان والتجرد ٠ وتطبيق السنة الشريفة ٠

وهذا هو معنى القدوة فى صورتها البسيطة :

ان وجود القدوة الاسلامية يعنى وجود شخص يدرك الناظر اليه أنه مستقل فى فكرته وعقيدته ٠ وسكناته وحركاته ٠ عما حوله وعمن حوله ٠ منفصل عنهم ٠ تميزه الابصار قبل المعاملة ٠ بما تعلو وجهه من معالم السكينة والهيبة والحزم التى شاء أن ينفرد بحيازتها المسلم دون غيره ٠

فيعوض بذلك عن صورة الحكم الاسلامى المفتقد ٠

ويكون بديلا لها ٠ وبرهانا على أن الاسلام قادر أن ينتج مثل هذه النماذج الانسانية الرفيعة ٠

أو بالأخرى : يكون برهانا على أن مثل هذه النماذج لا ينتجها غير الاسلام(١) .

فاذا اتسعت الدائرة .. وأثمرت الحكمة قاعدة من الدعاة المخلصين كان مجرد وجودهم وتعاونهم على البر والتقوى طريقا أمام أجيال تدخل فى دين الله أفواجا .يقول الرازى :

(ان الأرواح القوية الطاهرة اذا تطابقت على همة واحدة . قوى ذلك التأثير جدا) .

وذلك هو السبب الأصلى فى أداء الصلوات فى الجماعات) .

مع العلامة « أبو الحسن الندوى » :

فى مقال بمجلة البعث الاسلامى(١) تحدث العلامة أبو الحسن الندوى عن منهج مؤمن آل فرعون فى الدعوة الى الله .. وكيف انتصر بالحكمة على فرعون وقومه .

تساءل الندوى قائلا :

فى أية مدرسة تعلم مؤمن آل فرعون الحكمة ؟

---

(١) الرقائق ١٥٦ .

(١) جمادى الثانية ١٤٠٢ .

وأجــــاب :

في مدرسة الايمان !

وقد منحه الايمان حكمة ملك بها زمام الموقف ··

وقد بدا ذلك فى السبيل الذى سلكه فى الاقناع ··
والذى يتلخص فيما يلى :

(أ) الاحتجاج بالمشهود :

(وقد جاءكم بالبينات من ربكم ··) ·

(أخــرج يده فاذا هى بيضاء ··) ·

(ب) وبسنة الله المــاضية :

(لــكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا) ·

(جـ) الاعتبار بالتاريخ :
(انى أخــاف عليكم مثل يوم الأحزاب) ··

(د) التذكير بالآخــرة :
(ويا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد) ·

يوم تولون مدبرين لا تجدون ملجأ ·· بعد أن كنتم فى الدنيا ملجأ الناس !

(هـ) التذكير بظاهرة مرضية ·
فى المجتمعــات : نسيان النعمة ·

وقت معـــايشتهـــــــــــــا ٠

فالمصطلح الاجتمـاعى يعيش فينـا فنشتمه ٠٠ ونتلمس له العيوب فاذا مات ٠٠ مدحناه !

وقد حذرهم المؤمن من مغبة هذا الداء :

(ولقد جـاءكم يوسف من قبـل بالبينات
فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك
قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا) ٠

وهو موقفهم المتوقع من أخيه موسى :

فلعلهم لا يذكرون فضله الا بعد موته ٠٠

وهذا اسراف مذموم ٠

و (كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب)

وتبـدو المفارقة عجيبة ٠٠ يثيرها هذا الاستفهام الانـكارى ؟

(أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟) ٠

أعنى :
اذا قال فرعون :
أنا ربكم الأعلى ٠٠

واذا استخف قومه فأطاعوه ٠٠ فألهوه ٠٠ وهو لا يستحق الألوهية لا تقتلونه ٠٠

ثم تحاولون قتل الذى يؤمن بالرب الحقيقى الذى خلق فسوى ؟ !

استراتيجية الطغاة :

استثار فرعون فى نفوس الشعب أمرين :

١ - العقيدة .. ولها قد استها فى النفوس وان كانت فاسدة .

(انى أخا فأن يبدل دينكم) .

٢ - نشر الفساد والذعر بين صفوف الأمة .. وكل انسان يحب وطنه . ويخاف عليه من الفوضى .

(.. أو أن يظهر فى الأرض الفساد) .

وفى كتاب المثل السائر لابن الأثير طرف من هذا المنهج الراشد فى الدعوة الى الله بالحكمة التى يحقق بها الدعاة أهدافهم : يقول .

(وهو من مخادعات الأقوال التى تقوم مقام مخادعات الأفعال ، والكلام فيه ، وان تضمن بلاغة فقط ، بل الغرض ذكر ما تضمنه من النكت الدقيقة فى استدراج الخصم الى الاذعان والتسليم ، واذا حقق النظر فيه ، علم أن مدار البلاغة كلها عليه ، لأنه لا انتفاع بايراد الألفاظ المليحة الرائقة ، والمعانى

اللطيفة الدقيقة ، دون أن تكون مستجلبة لبلوغ غرض المخاطب بها ٠

والكلام فى مثل هذا ينبغى أن يكون قصيرا فى خلابه ، لا قصيرا فى خطابه ٠٠٠ وقد ذكرت فى هذا النوع ما يتعلم منه سلوك هذا الطريق فمن ذلك قوله تعالى :

«وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ، وقد جاءكم بالبينات من ربكم، وان يك كاذبا ، فعليه كذبه ، وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب » ٠

ماأنصف هذا الكلاموألطفه فانه أخذهم بالاحتجاج على طريقة التقسيم ، فقال : لايخلو هذا الرجل من أن يكون كاذبا ، فكذبه يعود عليه ولا يتعداه ، أو يكون صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، ان تعرضتم له وفى هذا الكلام من حسن الأدب والانصاف ، ما أذكره لك فأقول : انما قال يصبكم بعض الذى يعدكم ، وقد علم أنه نبى صادق وان كل ما يعدهم به لابد أن يصيبهم كله لا بعضه ، لأنه احتاج فى مقاولة خصوم موسى عليه السلام ، أن يسلك معهم طريق الانصاف والملاطفة فى القول ، ويأتيهم من جهة المناصحة ، ليكون أدعى الى سكونهم اليه ، فجاء بما علم أنه

أقرب الى تسليمهم لقوله ، وأدخل فى تصديقهم اياه ، فقال وان يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ، وهو كلام المنصف وذلك أنه حين فرضه صادقا فقد أثبت أنه صادقا فى جميع مايعد به ٠ ولكنه أردف بقوله : يصبكم بعض الذى يعدكم ليهضم بعض حقه فى ظاهر الكلام ، فيريهم أنه ليس بكلام من أعطاه حقه وافيا ، فضلا عن أن يتعصب له ٠ وتقويم الكاذب على الصادق من هذا القبيل كأنه يرطلهم فى صدر الكلام بما يزعمونه لئلا ينفروا منه ٠

ومما يجرى على هذا الاسلوب قوله تعالى :

« واذكر فى الكتاب ابراهيم ، أنه كان صديقا نبيا ، اذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد مالا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يغنى عنك شيئا ، يا أبت ، انى قد جاءنى من العلم مالم يأتك فاتبعنى أهدك صراطا سويا ، يا أبت ، لا تعبد الشيطان ان الشيطان كان للرحمن عصيا ، يا أبت انى أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا ٠

هذا الكلام يهز أعطاف السامعين ثم أخذ يشرح الاستدراج فى هذه الآية الكريمة ، وهو واضح للتأمل البصير ٠

وترى من هذا كله كيف يتخذ الاستدراج طريقا

لاثبات المدعى ، وذلك بأن يبدأ الخطيب فى القاء الريب فيما عليه من يخاطبهم ، ثم يلقى اليهم ببعض ما تنتجه الأدلة مغضيا النظر عن النتـائج الحقيقية السليمة التى تنتجها البراهين ، حتى اذا اطمأن الى أنه قد أخذ بزمام الجماعة يقودها حيث يشاء ، ألقى اليهم بالنتـائج كلها لبراهينه ٠ والاستـدراج كما رأيت يكون فى المقامات الخطابية التى يكون الخطيب فيها متصديا للدعـوة لأمر لم تألفه الجماعة ، أو لفكرة تناقض أمرا اتفقت عليه(١) ٠

نصيحة الى الشباب :

ان كثيرا من الشباب اليوم يتجهون الى العمـل اليـدوى حـرفة شريفة ٠٠ وبذلك يطبقون العلم فى مجالاتتحقق سعادتهم وسعادة وطنهمورفعة دينهم٠٠ بعيدا عن المراء السقيم العقيم ٠٠

وهم فى معركتهم تلك الصامتة يحاربون الجشع والاستغلال :

فالشباب الذين يصلحـون ما أفسـد الدهـر من مرافق البيوت ٠٠ لا يحصلون فقط على ربح ٠٠ وانما يطردون من السوق : العملة الرديئة ٠٠ هؤلاء الذين

---

(١) الخطابة ١٠٨ : ١١٠ ٠

يستغلون حـــاجة الناس ·· ولا يرحمون ضعفهم ·· وتلك صورة عليا من صور العبادة ·· صورة تأخـذ بعــدا آخــر لو تصورنا أنها تخـذل الباطل فى نفس الوقت ·· لأن أعداء الاسلام بعد أن فشلوا فى فرض ارادتهم بقوة الســلاح ·· حــاولوا استعبادنا عن طــريق صنــاعاتهم التى يقــوم هـــؤلاء الشبــاب بمسئولياتها ·· لحرمان الاعداء من التسلط علينا ··

(لقد تحررت اليوم معظم بلاد المسلمين بعــد دفع تضحيات منقطعة النظير··لكن قدر عالمالاسلام لم يتحرر فى حقيقة الأمر · فالغرب لا يزال جاثما على صدورنا(١) · وهو الذى يحكمنا مباشرة أو بصورة غير مباشرة وهو الذى يثير الثورات ويمــول الردة وهو الذى يدفعنا للاقتتال · ونحن ـ وان لم نكن نعانى من الظروف الداخلية القاسيةالتى نعانىمنها بالفعل ـ لا نملك أمــرنا ، فان السيطــرة العلمية والصناعية لشعوب الغرب تكفل لها السيطرة على عالمنا بأسلوب غير الأسلوب القديم · وهذا الأسلوب الجديد هو عقد المعاهدات التجارية والمعونات الاقتصادية التى لا تقل فداحــة نتائجهــا عن النظــام الاستعمــارى القديم فى شىء ·

---

(١) تغيرت الصورة اليوم تماما ·

ان هذه الحالة التى انتهينا اليها تبين لنا أنه كانت هناك ثغرة فى برنامج كفاحنا الطويل فلو ظل كفاحنا على الطريق الصحيح لما واجهنا هذه الظروف القاسية الحزينة التى نواجهها اليوم رغم تقديمنا كل تلك التضحيات ·

أين كانت تلك الثغرة ؟ ان الثغرة تكمن فى أن الحركات الاسلامية التى قامت ضد سيطرة الغرب لم يكن لديها العرفان الكامل عن نوعية العدو الذى تواجهه · لقد كانوا يظنون أنه ما عليهم سوى طرد الأجانب المستعمرين من البلاد ولكن هذه الحركات أهملت دراسة الأسباب التى مكنت السيطرة الأجنبية من التغلب على مقاومتنا · لقد ذهبنا ندرس الآداب واللغات الأوربية بينما أهملنا كليا فى وقت من الأوقات العلوم الأوربية التى مكنت المستعمرين من تحطيم مقاومتنا · وحدث كذلك أن هذه الحركات العظيمة لم تتمكن من تحضير شعوبنا لمواجهة الظروف التى نشأت من الرحيل الصورى للاستعمار عن أراضينا · لقد جلسنا ننفخ فى الأبواق ابتهاجا برحيل المستعمر · واذا به يدخل بيوتنا من أبواب غير الأبواب التى خرج منها (١) ·

---

(١) وحيد الدين خان - الجمهورية ٢٨ / ١٠ / ١٩٧٢ ·

يقول الشيخ محمد الغزالى فى نصيحة تتضح بها معالم الطريق :

(لكى تنجح الدعوة لابد من توفر أمرين ، أولهما الذكاء الحاد ، والثانى الاخلاص العميق ، وأعنى بالذكاء الاستنارة العقلية التى تجعل الانسان يدرك الواقع ادراكا سليما ، وكذلك الاسبحار الفقهى ، الذى يمكن الداعية من اصدار حكم صحييح على الأمور التى تعرض عليه .

أما الاخلاص ، فأعنى به النية الخالصة التى تتحرى وجه الله وترفض التأثر بأحوال الناس ، كما رفض التأثر بالدوافع النفسية الرديئة ، من حب الظهور أو حرص على المنفعة ، فاذا فقدت الدعوة هذين الأمرين أو أحدهما ، فان نجاحها يكاد يكون متعذرا ، وقد لاحظنا أن هناك ناسا يفقدون القدرة الفقهية ، وتراهم يجمعون بين رذيلتين :

عدم فهم الاسلام فهما شاملا ، يستوعب شعب الايمان السبعين ، فهم ينحصرون فى شعب معينة لا يعرفون ما وراءها ، كما يجهل البدوى أن هناك علما آخر وراء خيمته وشاته .

ثم هم مع هذا النقص الفقهى ، لا يعرفون النسبة القائمة بين شتى الشعب فلا يفرقون بين رأس وذنب ،

ولا بين شـكل وموضوع ، وينشأ عن هـذا التخبط أن الواحـد من هؤلاء قد يقاسى من أجل نافلة ، فى الوقت الذى يضيع فيه الفريضة ٠٠ وما أشك فى أن مصاب الاسلام من هؤلاء فادح ، لأنهم قد يخلصون مع جهل أو قد يعلمون مع غش ٠ ولا يصلح أمر الاسلام ولا تنجح دعوته بهـذا التصور ، ولنذكر الحـديث الشريف ٠

(فقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عـابد) ٠

هذا هو السر ، فى أننا حذرنا المسلمين من دعاة متعصبين تنقصهـم سعـة العـلم ٠ أو من علمـاء متعمقين تنقصهم النية الصالحة ٠

لو أننا نعرف ديننا معرفة جيدة ، لعرفنا الخاصة الأولى فى تعاليمه ، وهى السماحة والاعتدال ، فان النبى صلى الله عليه وسلم ، بعث بالحنيفية السمحة ، وكان اذا أرسل رجاله يدعون الى الاسلام ، أمرهم بابراز هذه الخاصية فيقول لهم يسروا ولا تعسروا ٠٠ بشروا ولا تنفروا ٠ وكان صلى الله عليه وسلم فى سيرته الخاصة ، معروفا بهذه السهولة فى مسلكه ٠ فما خير صلى الله عليه وسلم بين أمرين الا اختـار أيسرهما مالم يكن اثما ٠٠ فان كان اثمـا كان أبعد الناس عنه ٠

ويوجد الآن بيننا منتمون الى الاسلام ، يناقضون بفتاواهم وقضاياهم وسيرهم الخاصة والعامة ، هذه السنة النبوية فهم ما خيروا بين أمرين ، الا اختاروا أصعبهما · وما قدموا الاسلام الى الناس ، الا مقرونا بالشدة والعنف ، وتجسيم الأمور الثانوية ، وهؤلاء لا يعـرفون حقيقـة الاســلام ، بل لا يدركون معنى الفطرة ، التى يقوم عليها هـذا الدين · وقد وجـدت بعضهم فى عواصم الغرب يقدمون الاسلام ، على أنه أكل بالاصابع ، فاذا أكل أحد بأداة أخرى فالويل له ·· أو يقدمه شربا عن قعود ، فاذا شرب وهو قائم فالويل له ·

وتشبث هؤلاء بمثل هذا – ولا ننكر أنه سنة ينبغى العمل بها – يسبق تشبثهم بالأصل ومعاقد الايمان · ويشبه مسلكم مسلك الذين تحدثوا فى سنة رســول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه كان يصوم ويفطـر ويقوم وينام ·· لانهم ما يرون الدين الا صياما للأبد وقياما للأبد · وتشددوا فى معالجة الأمور كلها ·

ان بعض الشباب المتحمس ، قد يجمح به الغلو · وقد نتغاضى قيلا عن هذا الغلو حتى يعقل أصحابه أمر دينهم ، فاذا عقلوا واعتدلوا كان بها ، والا فان الغلو فى الدين مزلقة الى الافلات منه وتركه نهائيا · وقد حــرم الاســلام بنص وأوجب بنص · ولا يقبل من

أحد أن يزيد من أمره ونهيه وفق هواه ، بل علية أن يتبع أحـكام الاســلام التى مهد لها الفقهاء وعرفوا الجماهير بها • وبهذا المسلك نحسن الى أنفسنا والى ديننا ، ونخرج الشباب من الحيرة التى يحسها وهو يستمع الى أصوات كثيرة تناديه ، بفعل ما يشق عليه أو تركه ، وان الله يحب أن تؤتى رخصة كما يحب أن تؤتى عزائمه(١) •

(١) منار الاسلام شعبان ١٤٠١ •

محتويات الـكتاب

أحـ
يذ
الـ
ديـ
يسـ
أو
نؤ

رقم الايداع بدار الـكتب المصرية

١٩٨٤/٣٤١١م

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ شارع كامل صدقى بالفجالة
تليفون ٩١٦٠٧٦ ـ القاهرة